جامعـــة الأزهـــــر
كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية
كلية معتمدة من الهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد

الفطـرة ودلالـتها على وجود الـه تعالى ووحدانيته

دراسة تحليلية

إعداد

الدكتـــورة/ مريم ماهر محمد حماد

مدرس العقيدة والفلسفة-كلية الدراسات الإسلامية
والعربية بنات الزقازيق-
جامعة الأزهر.

مجلة كلية أصول الدين والدعوة بالمنوفية العدد الرابع والأربعون، لعام ١٤٤٦هـ-
يونيو ٢٠٢٥م والمودعة بدار الكتب تحت رقم ٢٠٢٤/٦١٥٧ والترقيم الدولي الطباعي
The Online ISSN 2974-4679 و I.S.S.N 2974-4660

الفطرة ودلالتها على وجود الله تعالى ووحدانيته
دراسة تحليلية

مريم ماهر محمد حماد
قسم العقيدة والفلسفة- كلية الدراسات الإسلامية والعربية بنات الزقازيق- جامعة الأزهر- مصر.
البريد الإلكتروني: mariamhammad. 2167@azhar. edu. eg

ملخص البحث: -

تناولت الدراسة بيان أن معرفة الله تعالي والإقرار بوجوده والاحتياج إليه أمر فطري مغروس في النفس البشرية، غير أن نفرًا من بني آدم اغتروا بعقولهم فضلوا، وعميت بصيرتهم، وانتكست فطرتهم، إلي حد انكارهم لوجود الخالق تعالي.

هدفت الدراسة إلى بيان مفهوم الفطرة، والتأكيد على أن سلامة الفطرة من أهم الأدلة على وجود الله بل من أسبق الشواهد على وجود الله تعالى، وأن ما جاء في القرآن الكريم كدليل على وجود الله تعالى ليس إلا إحياءً لهذه الفطرة، وتجلية لها، واستخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي الذي يسهل عرض الموضوع، والاهتمام بالتفاصيل وعرض الآراء المختلفة للعلماء في موضوع دلالة الفطرة على وجود الله تعالى، والوصول إلى نتائج تخدم الموضوع، وخطة البحث اشتملت على التعريف بالفطرة، وبيان آراء العلماء في معناها، وكيفية الاستدلال بالفطرة على وجود الله تعالى وعلى وحدانيته، ثم خاتمة: وفيها عرض لما تم التوصل إليه من نتائج ومن أهمها: أنَّ الشعور الفطري بوجود خالق مدبر لهذا الكون، هو شعور مشترك بين جميع الناس مغروس في النفوس، وأنَّ الأسئلة الكبرى التي تولد معنا وتعيش داخلنا والتي حيرت الكثيرين قديمًا وحديثا، ما هي إلا دليل فطري على وجود الله الذي أودعها في النفس.

الكلمات المفتاحية: الفطرة– الدلالة – وجود الله تعالى – وحدانيته.

Instinct and its Significance of the Existence and Oneness of God
An Analytical Study

Maryam Maher Muhammad Hammad
Department of Creed and Philosophy - Faculty of Islamic and Arabic Studies for Girls، Zagazig - Al-Azhar University - Egypt.
Email: - mariamhammad. 2167@azhar. edu. eg

Abstract: -

The study addressed the statement that knowing God Almighty، acknowledging His existence and the need for Him is an innate matter rooted in the human soul. However، some of the children of Adam were deceived by their minds and went astray، their insight was blinded، and their nature was corrupted to the point of denying the existence of the Almighty Creator. The study aimed to explain the concept of innate nature، and to emphasize that the integrity of innate nature is one of the most important proofs of the existence of God، and indeed one of the earliest evidences of the existence of God Almighty، and that what came in the Holy Qur'an as proof of the existence of God Almighty is nothing but a revival of this innate nature، and a manifestation of it. The researcher used the descriptive analytical approach that facilitates the presentation of the topic، attention to details، and presentation of the different opinions of scholars on the topic of the innate nature's indication of the existence of God Almighty، and reaching results that serve the topic. The research plan included defining human nature، explaining the opinions of scholars on its meaning، and how to prove the existence and oneness of God Almighty by human nature. Then there was a conclusion، in which a presentation was made of the results that were reached، the most important of which is that the innate feeling of the existence of a Creator who manages this universe. It is a feeling shared by all people، deeply rooted in their souls. The great questions that arise within us and live within us، and that have perplexed many people in the past and present، are nothing but innate evidence of the existence of God، who has placed them within the soul.

Keywords: Instinct، Meaning، The existence of God Almighty، His Oneness.

قال تعالى: ﴿ وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّاۚ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿١٤﴾ ﴾ [سورة النمل: ١٤].

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

الحمد لله المتصف بصفات الكمال، المنعوت بنعوت الجلال والجمال، المنفرد بالإنعام والأفضال، والعطاء والنوال. وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الداعي إلى أصح الأقوال، وأقوم الأفعال، المحكم للأحكام، المميز بين الحلال والحرام، وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه إلى يوم الدين.

أما بعد

فقد خلق الله الإنسان، وجعله خليفة له في الأرض، وبيّن سبحانه الغاية من خلق الإنسان وهي عبادته سبحانه، وتفضّل عليه بالفطرة السليمة، وكرّمه بالعقل، ومنَّ عليه بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين، ليكون الإنسان بعد ذلك أهلاً للتكليف.

ومعرفة الله تعالي والإقرار بوجوده والاحتياج إليه أمر فطري مغروس في النفس البشرية، يخلق في النفس السكينة، ويركن ذلك المخلوق إلى قوة عليا فاعلة مؤثرة تحوطه بالعناية، والرعاية في خطواته، ولولا هذه القوة القادرة لأصبحت الحياة خواء بلا معني، ولبقيت كثير من التساؤلات والاستفسارات المتعلقة بحقائق الحياة والإنسان والكون والمبدأ والمآل بلا جواب.

غير أن نفراً من بني آدم اغتروا بعقولهم فضلوا، وعميت بصيرتهم، وانتكست فطرتهم، إلي حد انكارهم لوجود الخالق تعالي.

ولما كانت الحكمة الإلهية أن يكون هناك حق وباطل، كان هناك إيمان وكفر؛ كان البحث في مسألة وجود الله من أعظم المسائل على الإطلاق، وأكبرها وأوجبها وأنفعها، وعليها اتفقت جميع الكتب المنزلة على رسله عليهم الصلاة والسلام، وهي أهم ما دعا الرسل أممهم إليه.

و لقد جعل الإسلام دعوته تبدأ من توحيد الله سبحانه وتعالى، والإيمان به، والإقرار أنه إله الكون وخالق الوجود، وجعل الهدف الأول بل والأخير للرسالات السماوية جميعًا، هو الإقرار بهذه القضية العظيمة من قضايا الدين، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [سورة النحل: ٣٦].

وبهذا جعل الدين الإسلامي هدف الإنسان على الأرض، أن يعرف ربه سبحانه وتعالى ويوحده، ويعبده وحده ولا يشرك به شيئا.

وقد أبان الله تعالى عن هذه القضية وأظهرها ودلل عليها بكل دليل حتى لا يترك فيها شكاً ولا ريباً لأحد، فأقام سبحانه وتعالى من آياته العظيمة في خلق السموات والأرض، والناس ما يرشد العباد إلى خالقهم العظيم، ويدلهم على ربهم القدير– سبحانه – الذي أحسن كل شيء خلقه، وأمرهم أن يتفكروا في خلق السموات والأرض، وفي خلق أنفسهم، وتعهد سبحانه أن يري العباد من آياته في الآفاق ما يحملهم حملاً على هذه القضية كما قال سبحانه وتعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِي ٱلْءَافَاقِ وَفِيٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ [سورة فصلت: ٥٣].

وعلى ضوء ما سبق، يعد هذا البحث محاولة بسيطة في خدمة العقيدة الإسلامية من خلال تبيان (دلالة الفطرة على وجود الله تعالى)، وتوضيح ما فيه من أمور تهم الفرد في معرفة الفطرة الإنسانية، وكيفية الاستدلال بها على وجود الله تعالى.

أهمية الموضوع:

١. الفطرة أصل الإيمان بالله: فهي أول دليل مغروس في النفس البشرية على وجود الله، قبل أي معرفة مكتسبة أو تفكير عقلي.

٢. الفطرة دليل عالمي مشترك: لأن الفطرة موجودة في كل إنسان بغض النظر عن الزمان والمكان والبيئة، فهي لا تختص بدين أو ثقافة بعينها.

٣. دليل الفطرة ردّ فعال على الإلحاد المعاصر: إذ تمثل الفطرة جبهة صد طبيعية في مواجهة التيارات الإلحادية والشبهات الفكرية التي تنكر وجود الخالق.

٤. دليل الفطرة منهج قرآني أصيل: فقد اعتمد القرآن الكريم على إيقاظ الفطرة ومخاطبتها، وربطها بالتفكر في النفس والآفاق كوسيلة للوصول إلى اليقين.

أسباب اختيار الموضوع:

١-دلالة الفطرة على وجود الله من أقوى الأدلة سواء أكانت هذه الأدلة علمية أم عقلية. فالفطرة هي الأساس التي تبنى عليه المعارف الإنسانية جميعها، وعلى رأسها معرفة الخالق سبحانه، لذا كان من اللازم إفراده بالبحث بشكل مستقل.

٢-الرد على المنكرين والرافضين لدليل الفطرة، واعتباره واحدًا من أقوى الأدلة على وجود الله تعالى وإثبات وحدانيته تعالى.

٣-الكشف عن منهج القرآن الكريم في مخاطبة العقول والقلوب على اختلاف مدارك الفهم في كل عصر، وإرشادها إلى الحق اليقين، ودحض كل فكر ضال عن الطريق المستقيم.

٤-شعور الإنسان فطريًا بمدبر لهذا الكون هو الأساس واللبنة الأولى الذي لا يستقيم الحديث العقدي إلا بها.

مشكلة البحث

تتمثل مشكلة هذا البحث في:

يسعى البحث للإجابة عن هذا التساؤل ما مدى اعتماد الفطرة كدليل على وجود الله ووحدانيته؟ وكيف يمكن توظيف هذا الدليل في ترسيخ العقيدة والرد على الشبهات الإلحادية المعاصرة؟ في ظل تفشي الأفكار التي تحاول التشكيك في فطرية الإيمان، والاعتماد الحصري على الأدلة الحسية أو العقلية المجردة.

أسئلة البحث

١. ما المقصود بالفطرة؟ وما العوامل التي تؤثر فيها؟

٢. كيف يمكن الاستدلال بالفطرة على وجود الله تعالى؟

٣. كيف يمكن الاستدلال بالفطرة على وحدانية الله تعالى؟

٤. ما موقف المنكرين لدليل الفطرة؟ وكيف يمكن الرد عليهم؟

٥. ما المنهج القرآني في التعامل مع الفطرة كمصدر للهداية؟

أهداف البحث

١. تعريف الفطرة وبيان حقيقتها من الناحية اللغوية والاصطلاحية.

٢. الكشف عن كيفية استدلال الفطرة على وجود الله ووحدانيته.

٣. بيان مكانة دليل الفطرة بين أدلة العقيدة الإسلامية، وتأكيد قوته وفاعليته.

٤. إبراز دور القرآن الكريم في ترسيخ الفطرة وتنميتها وتوجيهها.

٥. تعزيز وعي الشباب المسلم بأهمية هذا الدليل في بناء الإيمان واليقين، وخاصة في ظل التحديات الفكرية المعاصرة.

منهج البحث:

استخدم الباحث المنهج الوصفي التحليلي الذي يسهل عرض الموضوع، والاهتمام بالتفاصيل وعقد الآراء المختلفة للعلماء في موضوع دلالة الفطرة على وجود الله، والوصول إلى نتائج تخدم الموضوع.

□

خطة البحث:

يحتوي هذا البحث على مقدمة وتميهد ومبحثين وخاتمة.

المقدمة واشتملت على أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، ومشكلة البحث، وأسئلة البحث، ومنهج البحث، وخطة البحث.

التمهيد: ويشتمل علي مطلبين:

المطلب الأول: تعريف الفطرة لغة واصطلاحًا

المطلب الثاني: العوامل التي تؤثر في الفطرة.

المبحث الأول: كيفية الاستدلال بالفطرة على وجود الله تعالى..

المطلب الأول: مفهوم الفطرة ودورها في إثبات وجود الله

المطلب الثاني: شواهد الفطرة في الإنسان من خلال المواقف والتجربة.

المطلب الثالث: عالمية الفطرة وإقرارها عند علماء الإسلام وفلاسفة الغرب.

المطلب الرابع: الرد علي المنكرين لدليل الفطرة.

المبحث الثاني: كيفية الاستدلال بالفطرة على وحدانية الله تعالى.

المطلب الأول: مفهوم التوحيد والفطرة الدالة عليه.

المطلب الثاني: شواهد واقعية وتاريخية على فطرية التوحيد.

المطلب الثالث: عالمية التوحيد الفطري ورد الشبهات حوله.

خاتمة: وفيها عرض موجز واختصار لما تم تناوله في البحث.

نتائج وتوصيات: وفيها عرض لما تم التوصل إليه من نتائج وتوصيات.

وأسأل الله أن ينفعنا بما علمنا، وأن يعلمنا ما ينفعنا، وأن يجعل العلم حجة لنا لا علينا، وأن يرزقنا الهدى والتقى والعفاف والغنى، وألا يكلنا إلى أنفسنا طرفة عين؛ فهو حسبنا ونعم الوكيل.

د. مريم ماهر محمد حماد

تمهيد:

الإيمان بالخالق ووجوده يكون فطرياً ضرورياً في حق من سلمت فطرته، وقد يحتاج بعض الناس إلى أدلة على وجوده سبحانه عند تغير فطرهم، وما يحصل من ضلال أو انحراف في هذه الفطرة هو أمر طارئ على هذه الفطرة السليمة.

إن الإنسان بحسب فطرته يميل إلى اللجوء إلى رب يعتقد فيه القوة الخارقة والسيطرة الكاملة عليه وعلى المخلوقات من حوله، وهذا الاعتقاد يحقق له الميل الفطري للتدين، ويشبع نزعته تلك.

المطلب الأول: تعريف الفطرة لغة واصطلاحاً.

الفطرة في اللغة:

بالنظر في معاجم اللغة، نجد أن كلمة الفطرة مأخوذة من الفعل الثلاثي "فطر " الفاء والطاء والراء، وقد وردت بعدة معان:

منها: الشق: فطر الشيء، يفطره فطرًا، فانفطر، وفطره، أي شقه، وتفطر: تشقق، فالفطر: الشق وجمعه فطور، ومنه فطر ناب البعير، إذا طلع. وشواهد هذا المعنى في القرآن الكريم كثيرة منها: قوله تعالى: ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ ﴾[الانفطار: ١]. وما ورد في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم: " كَانَ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ حَتَّى تَتَفَطَّرَ قَدَمَاهُ"[(١)] أي تتشقق[(٢)]، ومن شواهد الفطر بمعنى الشق في كلام العرب:

قول ثعلب: شققت القلب ثم ذررت فيه هواك فليم فالتأم الفطار

---

(١) أخرجه البخاري في" صحيحه"، كِتَابُ تَفْسِيرِ القُرْآنِ ، بَابُ ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ (الفتح: ٢) (٤٨٣٧)(١٣٥/٦)

(٢) أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المحقق: عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، (د.ط)،٤٧٦/٢

وجاء في لسان العرب: فطر الشيء يفطره فطرًا: شقه، وتفطر الشيء: تشقق. وفطر الله الخلق يفطرهم: خلقهم وبدأهم، والفطرة الابتداء والاختراع(١).

ويأتي الفطر بمعنى الابتداء والاختراع والخلق والايجاد والإنشاء.

ورد في القاموس المحيط: فطر الله الخلق: خلقهم وبرأهم، وفطر الأمر، ابتدأه وأنشأه، والفطرة: هي الخلقة التي خلق عليها المولود في رحم أمه(٢).

ويقول الخليل: " وفطر الله الخلق، أي خلقهم وابتدأ صنعة الأشياء... فطر الله الخلق وهو فاطر السموات أي: مبتدعها، وافتطر الأمر: ابتدعه(٣).

وقال الجوهري: "والفطرة بالكسر الخلقة" و"الفطرة: الجبلة التي فطر الله تعالى عليها الخلق "(٤).

ومن شواهد تلك المعاني في القرآن الكريم: قوله تعالى: ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض﴾ [فاطر: ١] وقوله تعالى: ﴿فسيقولون من يعيدنا قل الذي فطركم أول مرة﴾ (الإسراء ٥١)

ومن شواهد السنة قوله- ﷺ-: " وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض"(٥).

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة، ج ٥/٥٥-٥٨.

(٢) محمد بن يعقوب الفيروزبادي، القاموس المحيط، ج٢، دار الحديث، القاهرة، ص١١٠

(٣) الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ، ٤١٨/٧، وانظر ، محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ، ١/ ٤٧٦، وراجع ، محب الدين الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ٤٧٠/٣.

(٤) أبو نصر إسماعيل الجوهري، الصحاح، دار الحديث، القاهرة، ١٤٣٠هـ، ج٤١٤/١

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين، باب الدعاء في صلاة الليل ٥٣٤/١، حديث رقم ٧٧١

ومما سبق، يتضح لنا أن الفطرة في اللغة لها معاني متعددة تدور حول: الشق، والخلقة، والابتداء، والاختراع، والإيجاد، وقد ورد ذكر أغلب هذه المعاني في القرآن الكريم والسنة وكلام العرب كما سبق بيانه.

الفطرة في الاصطلاح:

وردت كلمة الفطرة في حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: " كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ، فَأَبَوَاهُ يُهَوِّدَانِهِ، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ، كَمَثَلِ البَهِيمَةِ تُنْتَجُ البَهِيمَةَ هَلْ تَرَى فِيهَا جَدْعَاءَ " [(١)]. وجاء في قوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾[الروم ٣٠].

وقد تعددت آراء العلماء في بيانهم لمعنى الفطرة؛ ويرجع سبب هذا التعدد إلى اختلافهم في تفسير وتأويل الأحاديث الواردة عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم–: واعتماد بعضهم على المعنى اللغوي للفطرة، دون النظر في النصوص الشرعية التي فسرت معنى الفطرة، بالإضافة إلى ذلك، توهم بعضهم وجود تعارض بين النصوص الواردة في الفطرة؛ مما يلجأهم ذلك إلى تأويل معنى الفطرة، ومن ثَمَّ أدى ذلك لاختلاف الأقوال في حقيقة الفطرة.

وفيما يلي أهم الآراء الواردة في معنى الفطرة:

أولاً: الفطرة هي الخلقة التي خلق الله عليها المولود من المعرفة بربه، وذلك إذا بلغ مبلغ المعرفة، يريد خلقة مخالفة لخلقة البهائم التي لا تصل إلى معرفة ربها بخلقتها، واحتجوا على ذلك، بأن الفطرة في اللغة: الخلقة، والفاطر هو الخالق، وأنكروا بأن يكون المولود قد فطر على كفر أو إيمان أو إنكار أو معرفة، بل يولد سليما ثم يحدث له ذلك

(١) أخرجه البخاري في "صحيحه" كتاب الجنائز بَابُ مَا قِيلَ فِي أَوْلاَدِ المُشْرِكِينَ (١٣٨٥)، (١٠٠/٢)، ومسلم في "صحيحه" ٢٠٤٧/٤ كتاب القدر، حديث رقم :٢٦٥٨

بعد البلوغ والتمييز، واحتجوا على ذلك، بقوله – صلى الله عليه وسلم– في الحديث: " كما تنتج البهيمة بهيمة جمعاء، هل تحسون منها من جدعاء"، وكذلك القلوب تولد سليمة من جميع الاعتقادات الصحيحة والفاسدة، ولأنه لو فطر القلب على شيء من ذلك لما صح تغييره، والواقع غير ذلك، كما دل عليه لفظ الحديث: " فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه"، هذا ما ذهب إليه ابن عبد البر، والقرطبي ونسباه إلى أهل الفقه والنظر(١).

والفطرة: "الخلقة أي النظام الذي أوجده الله في كل مخلوق، ففطرة الإنسان هي ما فطر– أي خلق– عليه الإنسان ظاهرا وباطنا أي جسدا وعقلا، فمشي الإنسان برجليه فطرة جسدية، فمحاولة أن يتناول الأشياء برجليه خلاف للفطرة"(٢).

ثانيا: الفطرة هي العهد أو الميثاق الذي أخذه الله –تعالى– على ذرية آدم حين أخرجهم من صلبه وهم أمثال الذر، فأشهدهم على أنفسهم فأقروا له جميعا، ثم أخرجهم من أصلاب آبائهم مخلوقين، مطبوعين على تلك المعرفة، وذلك الإقرار؛ قالوا: وليس تلك المعرفة بإيمان، ولا ذلك الإقرار بإيمان، ولكنه إقرار من الطبيعة للرب، فطرة ألزمها قلوبهم، والمراد تمكن الناس من الهدى في أصل الجبلة، والتهيؤ لقبول الدين، فلو ترك المرء عليها لاستمر على لزومها لم يفارقها إلى غيرها؛ لأن حسن الدين ثابت في النفوس، وإنما يعدل عنه لآفة من الآفات البشرية كالتقليد(٣).

ومن قال بهذا احتج بقول الله تعالى: ﴿ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا بَلَىٰ ۛ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، فأقروا جميعًا، ثم أخرجهم من أصلاب آبائهم مخلوقين مطبوعين علي تلك المعرفة

---

(١) أبو عمر يوسف بن عبد البر، تجريد التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، مطبعة مكتبة المقدس، القاهرة، ١٣٥٠هـ،، ص: ٢٩٦

(٢) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، المجلد ٢١، الدار التونسية للنشر،١٩٨٤م، ص٨٨

(٣) أبو البقاء الكفوي، الكليات، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ، ص ٣٥٨

وذلك الإقرار، وقالوا ليست المعرفة بإيمان ولا ذلك الإقرار بإيمان، ولكنه إقرار من الطبيعة للرب، فطرة ألزمها قلوبهم، ثم أرسل إليهم الرسل فدعوهم إلي الاعتراف والخضوع له، "والميثاق هو العهد الذي أخذه الله تعالى على ذرية آدم حين أخرجهم نسما من ظهره"(١).

ثالثا: الفطرة هي البداءة التي ابتدأ الله الخلق عليها، وقالوا بأن الله ابتدأهم للحياة والموت والشقاء والسعادة، وكل ما سبق في علم الله مما يصيرون إليه عند البلوغ أو عند العافية، فمن ابتدأ الله خلقه للضلالة والشقاء صيره إلى ذلك، وإن عمل بأعمال أهل السعادة، ومن ابتدأ الله خلقه على السعادة والهدى صيره إلى ذلك، وإن عمل بأعمال أهل الضلالة(٢).

واحتجوا بحديث ابن عباس –رضي الله عنهما – قال: "لم أكن أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتى أعرابيان يختصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها: أي ابتدأتها"(٣).

و احتجوا بقول الله تعالى: " كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ، فَرِيقًا هَدَى وَفَرِيقًا حَقَّ عَلَيْهِمُ الضَّلاَلَةُ" (الأعراف٢٩–٣٠) وجاء في حديث عَائِشَة أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللهُ عَنْهَا، قَالَتْ: "دُعِيَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى الله عَلَيْهِ وسَلَّمَ إِلَى جِنَازَةِ غُلاَمٍ مِنَ الأَنْصَارِ، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، طُوبَى لِهَذَا، عُصْفُورٌ مِنْ عَصَافِيرِ الْجَنَّةِ، لَمْ يَعْمَلِ السُّوءَ، وَلَمْ يُدْرِكْهُ، قَالَ: أَوَ غَيْرُ ذَلِكَ

(١) أبو عمر يوسف ابن عبدالبر، تجريد التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، ص ٩٠–٩١ بتصرف.

(٢) المرجع السابق، ص٧٨

(٣) الحافظ عماد الدين بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق عبدالعزيز غنيم، دار الشعب، مصر، (د.ط)، ٦/ ٥١٩

يَا عَائِشَةُ، إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ لِلْجَنَّةِ أَهْلاً، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ، وَخَلَقَ لِلنَّارِ أَهْلاً، خَلَقَهُمْ لَهَا وَهُمْ فِي أَصْلاَبِ آبَائِهِمْ. "(١).

رابعا: الفطرة هي الإسلام؛ بمعنى أن كل إنسان يولد يوم يولد مفطورا على الإسلام أي دين الإسلام، وقد ذهب عامة السلف إلى هذا الرأي، في أن المقصود بالفطرة هي الإسلام، وقد أجمعوا في قوله تعالى: ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ على أن قالوا فطرة دين الله الإسلام.

وذكروا عن عكرمة ومجاهد والحسن وإبراهيم والضحاك وقتادة في قول الله تعالى: ﴿ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ قالوا: "دين الله الإسلام، لا تبديل لخلق الله، قالوا: لدين الله"(٢).

وقد استدلوا بقوله تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(الروم٣٠)، ووجه الاستدلال في هذه الآية، أن المولى- عز وجل – طلب في هذه الآية أن تسدد الوجوه لطاعته، وأن يتبع الإسلام الذي هو فطرة الله تعالى في جميع الناس، وهو دين الله القيم الذي رضيه لهم.

ويتضح مما سبق، أن المعاني التي ذكرها العلماء لتفسير لفظ (الفطرة) قد تعددت، فمن قولهم إنها الخلقة التي خلق عليها المولود من المعرفة بربه، إلى القول بأنها العهد والميثاق الذي أخذه الله على بني آدم في عالم الذر، مرورا بقولهم بأنها

(١) ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي، ح ٣٢

(٢) ابن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، الناشر: وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب، عام النشر: ١٣٨٧ هـ (١٨/ ٧٢) .

البداءة التي ابتدأ الله الناس عليها، انتهاء بالقول بأنها الإسلام، فأي الأقول السابقة أقرب للصواب؟

بداية، يمكن القول إن الله خلق الإنسان، ووضع فيه قدرة على الاستدلال والبحث إذا بلغ مبلغ الرجال، ويستطيع بهذه القدرة التمييز والبحث خلافًا لسائر الحيوانات، وتشهد بذلك العديد من الآيات القرآنية التي تحث الإنسان على النظر والتفكر والتدبر، وهذه القدرة أصيلة في الإنسان، نجدها عند المتدين وغير المتدين، تختلف من إنسان لآخر حسب درجة ثقافته، وتتطور عنده كلما ارتقى فكره وتوسعت مداركه، وهذه القدرة التي منحها الله للإنسان هي قوة الفطرة الإلهية في الناس جميعًا.

وبالتالي، نقول إن الإنسان مع هذا الاستعداد الفطري للنظر، والتفكير، والاستنتاج، قد فطره الله على الإيمان برب خالق، في حدود هذا المفهوم دون ما وراءه من التفاصيل الدينية التي جاء بها الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم أجمعين.

فمن المعلوم أن الله خلق الإنسان لا يعلم شيئا، لا يعلم ما هي الصلاة، ولا الزكاة، ولا الحج، إلى غيرها من التفاصيل الدينية، فكيف نفسر معنى الفطرة أنها الإسلام بما يشتمل عليه من عبادات ومعاملات، يقول تعالى: ﴿ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل٧٨)

فإذا كان المقصود من ولادة المولود على الفطرة أنه يولد على التوحيد وهي عقيدة الإسلام خلافا لليهودية والنصرانية والمجوسية التي لا تقر بوحدانية الله تعالى؛ هنا تعلم مقدار التوافق مع الرأي الذي يشير إلى أخذ الميثاق على العباد الوارد في

الآية: ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾(الأعراف: ١٧٢)

يقول الإمام الطبري –رحمه الله– في تفسير هذه الآية: " يقول الله تعالى تعالى ذكره لنبيه محمد – صلى الله عليه وسلم–: واذكر يا محمد ربك إذ استخرج ولد آدم من أصلاب آبائهم، فقررهم بتوحيده، وأشهد بعضهم على بعض شهادتهم بذلك، وإقرارهم به(١).

ويتبين من كلام الإمام الطبري، أن الفطرة المشار إليها في عالم الذر هي التوحيد الذي تقبله النفس البشرية، وأن خلق المولود يكون مع معرفته بوجود الله تعالى ووحدانيته، ويكون كذلك عنده قابلية لوجود الدين.

ولذلك، كان وجود الله من الأمور المركوزة في الفطر البشرية؛ فإن كل إنسان يشعر في نفسه بأن له ربا وخالقا، ويحس بعظيم الحاجة إليه، فيتجه بيديه وقلبه إلى السماء؛ لطلب الغوث من ربه.

فلو ترك الإنسان وذاته وبما أودعه الله في خلقته، لأدرك أن لهذا العالم خالقا ومكونا ومبدعا أبدعه، ومدبرا دبره، وهذا الشعور نابع من ذاته وفطرته، وليس مما تعلمه واكتسبه في حياته، لا تغيره الظروف ولا ينتزع من نفسه، فهو جزء لا يتجزأ منه في دخيلة نفسه.

إن إثبات كون الفطرة هي الإسلام، لا يقتضي خلق علم ضروري في نفس الإنسان، يجعله عالما بالعقيدة وأصولها، قال تعالى: (وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئًا) [النحل: ٧٨]. كما أن الله تعالى تكرما منه لا يعاقب قبل

(١) أبو جعفر بن جرير الطبري، تفسير الطبري، المجلد الثالث، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ ، ص٥٢١

بلوغ الحجة الرسالية، مصداقا لقوله تعالى: (ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ) [الأنعام: ١٣١]؛ بل تمتنع المؤاخذة حتى يبعث إليهم الرسول، ومن حكمة ذلك أن معرفة الله وإثبات وجوده المركوز في الفطر والعقول إجمالي لا تفصيلي، فالعقل لا يهتدي لكل كمالات الله تعالى، ولا يهتدي إلى كل ما يرضيه من الأقوال والأفعال، فلابد له من وحي يهديه ويرشده ويبين له معاقد الحل والحرمة في أفعال المكلفين، كما أن العقل والفطرة لا يدلان على عقوبة الآخرة لمن قصر في ذلك، فجاء الرسول ببيان ثواب التوحيد، وعقوبة الشرك في الدنيا والآخرة.

ويتبين أيضا أن الفطرة لا تكفي وحدها لهداية الناس، فالشريعة مكملة للفطرة ومفصلة للأحكام التي لا تستقل الفطرة بإثباتها، فمثل الفطرة مع الشريعة كمثل العين مع النور، فإن العين إذا غاب النور عنها لم تبصر شيئاً، وكذلك الفطرة إذا غابت عنها الشريعة المنزلة.

إن الحقيقة التي نستنبطها من القرآن في هذه القضية، هي أن كل مولود يولد على فطرة التوحيد. فكل فرد من أفراد الناس مفطور: أي مخلوق على ملة الإسلام، ولكن لا اعتبار بالإيمان والإسلام الفطريين، وإنما يعتبر الإيمان والإسلام الشرعيان، وهذا قول جماعة من الصحابة، ومن بعدهم، وقول جماعة من المفسرين وهو الحق. والقول بأن المراد بالفطرة هنا: الإسلام هو مذهب جمهور السلف". [١]

(١) الشوكاني، فتح القدير للشوكاني، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب – دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى – ١٤١٤ هـ (٤/ ٢٥٨)

تعريف الدليل:

الدليل لغة: يدور الجذر اللغوي لمادة «دلَّ» على «إبانة الشيء بأمارة تتعلمها» ويتفرع عن هذا المعنى العام ثلاثة إطلاقات يستعمل لفظ الدليل للتعبير عنها [١]:

فيطلق أولًا على الدال: أي المرشد، وهو ناصب الدليل، فيكون من باب فعيل بمعنى فاعل،

كما يطلق على الذاكر للدليل، وهم أولو العلم المنتصبون لإقامة الأدلة، ويطلق بمعنى ثالث على ما فيه دلالة وإرشاد. والمعنى الأخير هو المقصود في عرف المتكلمين، فهم يريدون بالدليل ما فيه إرشاد إلى المطلوب ولا يعنون بذلك من ذكره، أو نصبه دليلًا.[٢] وهو المقصود في هذا البحث.

الدليل اصطلاحًا: ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى مطلوب خبري، والمطلوب الخبري يشمل القطع والظن وهذا مذهب أكثر الفقهاء والأصوليين. وقال أبو الحسين البصري وبعض المتكلمين: ما أفاد القطع يسمى دليلاً وما أفاد الظن يسمى أمارةً. [٣]

---

(١) انظر: ابن فارس «معجم مقاييس اللغة» (٢٥٩/٢) وابن منظور «لسان العرب» (٢٤٨/١١، ٢٤٩) والزبيدي «تاج العروس» (٥٠١/٢٨) والتهانوني «كشاف اصطلاحات الفنون» (٥٤١/١، ٥٤٢) والزركشي «البحر المحيط» (٣٤/١).

(٢) انظر: الآمدي «أبكار الأفكار» (١١٥/١) تحقيق: د/ أحمد المهدي، رسالة دكتوراه بكلية أصول الدين، جامعة الأزهر (١٩٧٤م).

(٣) انظر : شرح المحلي على جمع الجوامع(١/ ١٢٤ – ١٢٥)، شرح الكوكب المنير(١/ ٥٢)، المحصول، للرازي (١/ ١٠٦/١)، البحر المحيط للزركشي (١/ ٣٥ – ٣٦)، تيسير التحرير(١/ ٣٣)، نهاية الوصول، الأرموي الهندي (١/ ٩)

المطلب الثاني: العوامل التي تؤثر في الفطرة:

إذا كان التدين أمرًا فطرياً مركوزاً في النفوس، وأن معرفة الرب تعالى والإقرار به فطرة فطر الله الناس عليها، فما الذي يدفع الإنسان إلى الكفر والإلحاد؟ وما الذي يغير الفطرة عن أصالتها، ويبدلها عن نصاعتها، حتى تصبح منطمسة عن الإبصار للحق والإذعان للهداية، ويجنبها الصواب، ويلصقها بالباطل؟ والسبب في الإلحاد والشرك والكفر هو المؤثرات الخارجية التي تطرأ على الفطرة الإنسانية، ومن هذه الأسباب إضلال الشياطين، والبيئة المنحرفة تعمل عملها في إضلال الفطرة السليمة. (١)

إن هناك عوامل كثيرة أدت إلى إضعاف الفطرة واختفائها وضلالها، أهم هذه العوامل ما يلي:

-البيئة الفاسدة: إن انصراف الإنسان إلى ملذاته وشهواته، لاسيما التي حرمها الله تعالى، وحث الرسل على تركها واجتنابها والابتعاد عنها، من أشد العوامل خطورة على الفطرة، خاصة إذا نشأ في بيئة فاسدة، تطغى فيها الماديات على الأمور الروحية.

يقول الشيخ محمد الغزالي: " البيئة الفاسدة خطر شديد على الفطرة، فهي تمسخها وتشرد بها، وتخلف فيها العلل، ما يجعلها تعاف العذب، وتسيغ الفج، وذلك سر انصراف فريق من الناس عن الإيمان والصلاح، وقبولهم للكفر والشرك، مع منافاة ذلك لمنطق العقل وضرورات الفكر وأصل الخلقة"(٢).

---

(١) عمر سليمان الأشقر «نحو ثقافة إسلامية أصيلة» الناشر: دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، الطبعة: الرابعة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م (ص١٠١)

(٢) محمد الغزالي، عقيدة المسلم، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م، ص١٧

-التقليد الأعمى:

ومن الأمور التي تضعف الفطرة أيضا وتؤثر عليها، تقليد الآباء واتباعهم في الباطل، وفي التقليد إبطال لدور العقل الذي خلق للتأمل والتدبر والتفكر، وفيه أيضا حجب للمواهب، وإقفال لمنافذ المعرفة.

لذلك، عاب الله على المقلدين فقال تعالى: ﴿ بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ (الزخرف٢٢، ٢٣).

-شبهات الملاحدة:

الشبهات التي نشرها الملاحدة في مختلف العصور، من دعوة إلى التحلل من القيم الأخلاقية النبيلة، والصد عن سبيل الله بكل وجه ممكن؛ سعيا منهم إلى هدم المثل العليا، ونبذ الدين والكفر بالله رب العالمين. وفي القرآن الكريم آية عجيبة وصفت بكل دقة ملامح الشاكين والمترددين، ومشاعر الملحدين الضالين، لا في عهد الجاهلية الأولى وحدها ولكن في جميع العصور، أولئك الذين إذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم، وانقبضت نفوسهم، وإذا ذكر الذين من دونه هشوا وبشوا وانطلقت أسارير وجوههم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾، والسر فيما عليه هذا الفريق من التنكر للهداية، والتفتح للضلال، هو ما أصابهم من انحراف الفطرة، نتيجة لسوء التربية وفساد التوجيه، فتنكروا لجميع القيم الروحية، واستهانوا بسائر المثل العليا، وأكبرها وأجلها الإيمان بالله، والثقة بتوجيهه، وانشراح الصدر لإشراق نوره، وتلقي مدده. [1]

(١) محمد المكي الناصري، «التيسير في أحاديث التفسير» الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ – ١٩٨٥ م (٥/ ٣٥٩)

الغفلة:

قال الله تعالي ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ (١٧٢) أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣]

يوضح لنا القرآن الكريم ما يطمس الفطرة الإيمانية، أمران: الغفلة والتي قال الله عنها: ﴿أَن تَقُولُواْ يَوْمَ القيامة إِنَّا كُنَّا عَنْ هذا غَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٧٢] والقدوة التي قال الله عنها: ﴿إِنَّمَآ أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ ... ﴾ [الأعراف: ١٧٣]

يقول الإمام الشعراوي –رحمه الله–: "الذي يطمس الفطرة الإيمانية الغفلة عن المنهج، هذه الغفلة تُوجِد جيلاً لا يتمسك بمنهج الحق، وبذلك تكون العقبة في الجيل الأول الغفلة، لكن في الأجيال اللاحقة الغفلة والقدوة السيئة، وهكذا كلما تنقضي الأجيال تزداد الغفلة، وتزداد القدوة السيئة؛ لذلك يوالي الحق سبحانه إرسال الرسل ليزيح عن الخَلْق هذه الغفلة، وليوجد لهم من جديد قدوةً حسنة، ليقارنوا بين منهج الحق ومنهج الخَلْق. (١)

عوامل إيقاظ الفطرة:

النظر والتأمل والتدبر: عندما يتأمل الإنسان في خلقه، وفي دقة نظام الكون من حوله، يعود إدراكه الفطري إلى الشعور بأن هذا النظام لا يمكن أن يوجد صدفة، بل يدل على خالق حكيم عليم.

فالإنسان إذا أراد أن تتجلى فطرته وتتطهر مما علق بها من شوائب الفكر، فعليه بالنظر في الكون نظرة شاملة، تتناول سماءه وأرضه، وإنسانه وحيوانه، وكواكبه وأفلاكه، ونباته وجماده، وكل ما يواكب ذلك من تغيرات، كالحركة والسكون، والليل والنهار، فإذا

(١) محمد متولي الشعراوي ،تفسير الشعراوي – الخواطر، الناشر: مطابع أخبار اليوم (١٩/ ١١٦٩٥)

نظر الإنسان إلى هذا الكون وما فيه من إبداع ونظام دقيق، شهد أن لهذا الكون ربًا صانعًا وخالقًا قديرًا؛ ومن ثم كان هذا العامل منبهًا للفطرة، حيث ينتهي هذا النظر إلى النتيجة التي فطر الناس عليها.

أول شعور يُشرق في أعماق الإنسان إذا تأمل في نفسه وفي الكون من حوله، شعوره بوجود قوة كبرى مهيمنة على الكون، تمنحه التدبير والتنظيم، وتتصرف فيه بالحياة والموت، والبناء والفناء، والتغير والتطور، والحركة والسكون، وجميع أنواع التغيرات الحكيمة التي تجري فيه(١)، فالتأمل يوقظ الفطرة داخل النفس الإنسانية، ويجعلها ترى الظواهر التي تجري من حولها على حقيقتها، وأنها كلها دالة على عظمة الله تعالى موصلة إلى توحيده، فلا يغفل الإنسان عن الغاية التي خلق من أجلها.

يقول ابن الجوزي: "لو تأمل الإنسان نفسه لكفت دليلا ولشفت غليلا فَإِن فِي هَذَا الجسد من الحكم مَا لا يسع ذكره فِي كتاب ومن تأمل تحديد الأسنان لتقطع وتقريض الأضراس لتطحن واللسان يقلب الممضوغ وتسليط الكبد عَلَى الطعام ينضجه ثم ينفذ إِلَى كل جارحة قدر مَا تحتاج إليه من الغذاء وهذه الأصابع التي هيئت فيها العقد لتطوي وتنفتح فيمكن العمل بِهَا ولم تجوف لكثرة عملها إذ لو جوفت لصدمها الشيء القوي فكسرها وجعل بعضها أطول من بعض لتستوي إذا ضمت وأخفي فِي البدن ما فيه قوامه وهي النفس التي إذا ذهبت فسد العقل الذي يرشد إِلَى المصالح وكل شيء من هذه الأشياء ينادي أفي الله شك"(٢)

(١) عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الوجيزة في العقيدة الإسلامية، مؤسسة الريان، بيروت، ط٢: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م، ص٢٩

(٢) ابن الجوزي، تلبيس إبليس، الناشر: دار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م (ص٤٠)

القرآن الكريم:

القرآن الكريم من أعظم ما يوقظ الفطرة الإنسانية، ويعيدها إلى صفائها ونقائها الأول، وذلك لما فيه من خطاب إلهي يخاطب العقل والقلب معًا، ويستنهض ما أودعه الله في النفس البشرية من ميل فطري نحو الإيمان به وتوحيده.

فالقرآن لا يخاطب الإنسان من الخارج، بل يوقظ ما هو مزروع فيه أصلاً من معرفة الله وتعظيمه، ويأخذ بيده إلى التأمل في نفسه وفي الكون من حوله، ليصل إلى اليقين الذي فُطر عليه. قال تعالى: قال الله تعالي ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِنْ لِقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٣، ٥٤] يقول ابن كثير: "ويحتمل أن يكون المراد من ذلك ما الإنسان مركب منه وفيه وعليه من المواد والأخلاط والهيئات العجيبة، كما هو مبسوط في علم التشريح الدال على حكمة الصانع تبارك وتعالى. وكذلك ما هو مجبول عليه من الأخلاق المتباينة، من حسن وقبيح وبين ذلك، وما هو متصرف فيه تحت الأقدار التي لا يقدر بحوله، وقوته، وحيله، وحذره أن يجوزها، ولا يتعداها"[(١)]

-اللجوء إلي الله عز وجل عند الشدائد:

ومما يوقظ الفطرة ويجليها أيضا المصائب والشدائد، فالفطرة كمثل المرآة. إذا كلما كانت أصفى كانت الصورة أوضح، فكذلك الفطرة كلما كانت أنقى وأبعد عن التلوث، تمكن الإنسان من رؤية الحقائق الإيمانية بوضوح. إذن فمَرَدُّ اختفاء حقيقة وجود الله عز وجل عن فطر الكفار والمشركين، هو هذه الغشاوة السميكة التي نسجتها الغفلة وشياطين الإنس والجن من الشبهات والأفكار السامة.

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، الناشر: دار طيبة للنشر والتوزيع الطبعة: الثانية ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩ م (٧/ ١٨٧)

ومع ذلك، فقد تنقشع هذه الغشاوة، وتظهر هذه الحقيقة ظهورا لا يبقى معه للشرك والإلحاد وجود. وذلك حين تصاب النفس بمصاب أليم، أو تقع في مأزق، ثم تنقطع عنها أسباب النّجاة، فلا تجد يومئذ من ملجأ إلا الذي فطرها أوّل مرّة. فإذا بنداء الفطرة يخرج من الأعماق، ويدوّي فيملأ صوته الآفاق. قال تعالى: ﴿حتَّى إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُواْ بِهَا جَاءتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّواْ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُاْ اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ يونس ٢٢. وقال: (وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا) الإسراء ٦٧

وهذا يحدث للمسلم والكافر، فقد قال تعالى مخاطبا كفار مكة خطابا تقريريا فقال: ﴿أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاء الْأَرْضِ أَإِلَهٌ مَّعَ اللّهِ قَلِيلاً مَّا تَذَكَّرُونَ﴾. النمل، ٦٢ بل إن فرعون الذي قال: ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ النازعات ٢٤، ﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠] «وهذا دليل الفطرة، فلا ملجأ ولا ملاذ للمخلوقات عند وقوع الضر بهم إلا التوجه إلى الواحد الأحد الفرد الصمد والفاصلة ملائمة ومؤكدة للدليل، فإن الالتجاء إلى الله سبحانه وتعالى عند الشدة أمر فطري راسخ في النفس البشرية، إلا أن الناس يغفلون عن ذلك في حالة السراء، فلا يحتاج الأمر إلا إلى تذكرهم، وإن لم تهيأ الظروف المذكرة لهم بذلك فإن الشدة تفرض عليهم الذكرى وتزيل الغشاوة عن الفطرة وصفائها فختمت الآية بـ ﴿تَذَكَّرُونَ﴾. (١)

إذًا تُوقَظ الفطرة اضطرارا؛ عند حلول المصائب والمحن، فتنفض عنها غبار الأيام وسراب الآمال الملهيات: "وَإِذَا مَسَّ الإِنسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ..." (الزمر، الآية

(١) مصطفى مسلم،«مباحث في التفسير الموضوعي» الناشر: دار القلم الطبعة: الرابعة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م (ص١٦٣)

٨). وإنما تغتال الفطرة عندما تفسر المصائب والكوارث بتفسيرات تخرجها عن إرادة الله وقدرته، وتجعلها أسبابا بلا مسبب، وبذلك تعظم البلية. وتخرج النفس من مثل هذه الغفلة إذا تفكرت بخلق الله وما فيه من آيات عظيمة، يبعثها النظر فيها على إدراك حسن التدبير ودقة الصنعة، وبعد ذلك إدراك عجزها وضعفها وحاجتها إلى خالقها وافتقارها إليه.

وقد أرسل الله الرسل عليهم السلام لإصلاح الفطر التي تقذرت بأدناس الشرك، ونشر القيم الصحيحة مكان القيم الفاسدة التي استحسنها الناس بسبب التقليد واتباع الأهواء، وتذكير الناس بما فطرهم الله عليه من التوحيد والإيمان، لقوله تعالى: " رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا"(النساء: ١٦٥).

ومما سبق، يتضح أن الفطرة الإنسانية تضعف وتقوى، وتخبو وتتجلى، وكل ذلك نتيجة لعوامل عدة. بعضها يحفظها سليمة أو يقوي سلامتها، وأخرى تؤثر عليها وتفسدها كما بينا ذلك.

المبحث الأول: الاستدلال بالفطرة على وجود الله

إن حقيقة وجود الله تعالى من أَجَلِّ الحقائق وأوضحها، لكن حين تنتكس الفطرة الإنسانية، ويتم التشكيك في البدهيات والقواعد المنطقية، تصبح الفطرة في حاجة ماسة للاستدلال بها على وجود الله تعالى. ويعد دليل الفطرة من الأدلة الكبرى على وجود الله تعالى، وهو ركيزة أساسية كذلك في الاستدلال القرآني على أصول الاعتقاد، فالقرآن الكريم لا يقدم الأدلة بالترتيب والتفصيل، بقدر ما يخاطب في الإنسان تلك الفطرة التي فطره الله عليها، فيقول الله تعال: ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾ [إبراهيم: ١٠]، في جمع بديع بين استثارة الفطرة والاستدلال بالكون المنظور.

المطلب الأول: مفهوم الفطرة ودورها في إثبات وجود الله:

والفطرة هي الخلقة التي يكون عليها كل موجود أول خلقه، والفطرة هي الخلقة السليمة لم تشب بعيب، وفي التنزيل العزيز: قال الله تعالي ﴿فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ﴾ [الروم: ٣٠].

"والفطرة في المفهوم الإسلامي هي خلق الله الإنسان على الإسلام، أي: شاهدا بعبوديته لله، ومقرا بربوبيته، ومزودا بالاستعداد والطاقات الظاهرة والكامنة التي تمكنه من إصابة الحكم، والتمييز بين الحق والباطل وفقا لمعايير منهج الله". (١)

مما يزيد الأمر وضوحا في شأن الاستدلال بالفطرة على وجود الله، لابد أن نعرف مكونات هذه الفطرة، ومن خلالها نستطيع الاستدلال بها على وجود الله تعالى.

أهم هذه المكونات، البدهيات العقلية، والنزعات الفطرية (التدين – الجمال – الأخلاق). ودليل الفطرة مفاده أن الإنسان لو ترك وذاته. دون أي مؤثر من مؤثرات البيئة، فإنه يشعر من داخله وبما أودعه الله من فطرة بأن لهذا الكون موجد وقادر، وهذا

(١) على أحمد مدكور، مناهج التربية أسسها وتطبيقاتها، الناشر: دار الفكر العربي، الطبعة: ١٤٢١هـ – ٢٠٠١م (ص٨١).

الشعور لا يمكن انتزاعه من نفسه. وأن الإنسان لو ترك على فطرته السليمة، دون وجود عوامل خارجية تؤثر فيه، لتوصل لحقيقة وجود الله تعالى، وهذا ما أثبته ابن طفيل في قصة حي بن يقظان؛ كيف نشأ في الغابة وحيداً مع الحيوانات ثم تدرج في معرفته حتى وصل إلى حقيقة مفادها أنه "علم بالضرورة أن كل حادث لا بد له من محدث" (١).

البدهيات العقلية ودلالتها علي وجود الله:

وهي المباديء العقلية الأولية التي يولد بها الإنسان، ولا يكتسبها من البيئة أو يتعلمها من المجتمع، بل هي فطرية في الإنسان ولا تحتاج إلى تلقين، ومن هذه البدهيات: الجزء من الشيء أصغر من الكل، لكل حادث محدث، كالبنيان مثلا، لابد له من بان والكتابة لابد لها من كاتب، والصنعة لابد لها من صانع، والمخلوق لابد له من خالق، فالطفل الصغير إذا ضرب من خلف التفت واستدار؛ لعلمه أن الضرب لابد له من ضارب، ومنها واستحالة اجتماع النقيضين كالموت والحياة، ومنها استحالة وجود جسم واحد في أكثر من مكان، وتحديد الأحداث بالزمان والمكان، وانقسام الأخبار لصدق وكذب.

وكل هذه البدهيات هي فطرية أساسية في الإنسان، لا يختلف عليها العقلاء، بل إليها مرد الحقائق والمعارف الأخرى، وبها يتم الاستدلال على صحة أو خطأ المعرفة المكتسبة التي تتحصل بالنظر، ويجد الإنسان في نفسه مدافعة للتشكيك فيها.

وقد ذكر أبو محمد بن حزم – رحمه الله – طرفا من هذه العلوم الضرورية، ثم قال: " فهذه أوائل العقل التي لا يختلف فيها ذو عقل، وهي التي لا شك فيها ولا سبيل إلى أن يطلب عليها دليلا، إلا مجنون أو جاهل، لا يعلم حقائق الأشياء، وهذا أمر يستوي في

(١) عبدالحليم محمود، فلسفة ابن طفيل ورسالته حي بن يقظان، ط٢، مكتبة الأنجلو، القاهرة، ص٢٥

الإقرار به كبار بني آدم وصغارهم في أقطار الأرض، إلا من غالط حسه، وكابر عقله، فيلحق بالمجانين"[١].

ويقول الإمام ابن حزم أيضا: " ما كان مدركا بأول العقل وبالحواس، فليس عليه استدلال أصلا، بل من قبل هذه الجهات يبتدىء كل أحد بالاستدلال، بالرد إلى ذلك، فيصح استدلاله أو يبطل "[٢].

ومعنى قولنا فطرية: " أن الله سبحانه وتعالى خلقها في النفس البشرية قبل مباشرتها أي معرفة خارجية، ومع كونها تتضح بعد ذلك، ويكون هذا الوضوح سائقا للنفس عن شيء نحو مقتضياتها، إلا أنها قد تتأثر بعوامل خارجية، فتغفل النفس عن شيء منها، أو يخفف وضوحها وهي مع ذلك مضمرة في النفس، تعود لوضوحها كلما انجلى غشاؤها بالتذكير أو بزوال العامل الحاجب ونحوه "[٣].

ولا يلزم من القول بفطريتها أن تكون متحققة بالفعل، بل يمكن أن تكون فطرية مع أن وجودها إنما هو بالقوة وليس الفعل، بمعنى أن الإنسان مفطور على التسليم بها بمجرد تصورها، بحيث لا يحتاج ذلك إلى برهان، فهي فطرية لا بمعنى أنها كامنة في النفس، وإنما بمعنى أن الغريزة العقلية تقتضيها بالضرورة، وعلى هذا فليست فطريتها هي مجرد إمكانها، بل هي وجوب تحققها مع سلامة الحواس والغريزة العقلية".

---

(١) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، المجلد الأول، ص ٤١

(٢) ابن حزم، الفصل في الملل والأهواء والنحل ٥/ ٢٤٢

(٣) عبد الرحمن بن زيد الزنيدي، مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٢م، ص ٣٣١

وتتسم هذه المبادئ بالعمومية وشمولها لكل العقول، بحيث تكون الحقيقة واحدة عند جميع الناس العاقلين على السواء، ولا تتوقف على مزاج أحد، ولا تنسحب على فرد دون فرد(١)،

فإذا كانت هذه البدهيات والمبادئ فطرية أساسية في الإنسان، لا يختلف عليها العقلاء، وإليها مرد الحقائق والمعارف، وبها يتم الاستدلال على صحة أو خطأ المعرفة المعرفة المكتسبة التي تتحصل بالنظر، فمن ثم فإن هذه البدهيات تؤدي إلى وجوب وجود الله تعالى؛ لأن وجودها وجود أولي فطري غير مكتسب، وأن هذا الوجود يستلزم الدلالة على وجود من غرس هذه السمات وأودعها في الإنسان، وأن فيها دلالة على وجود الله تعالى وخالقيته وعلمه وحكمته.

كما أن هذه البدهيات هي من مصادر المعرفة العلمية التي توصل الإنسان من خلالها إلى أن المادة ليست أزلية، وإلى معارف علمية كثيرة تقتضي وتشهد بوجود إله خالق لهذا الكون، كالقوانين والثوابت والضبط الدقيق.

كما أكد الإمام البوطي أن" إثبات وجود الله تعالى، يبدأ من جملة من الحقائق والمبادئ الفطرية التي أجمع العلماء على ضرورتها"(٢).

النزعات الفطرية (التدين – الجمال – الأخلاق):

وننتقل إلى مكون آخر من مكونات الفطرة ألا وهو وجود عدد من النزعات الفطرية داخل النفس الإنسانية، منها نزعة التدين، ونزعة الأخلاق ونزعة الجمال، أما عن نزعة التدين داخل النفس الإنسانية، فنقصد بها شعور الإنسان بالحاجة والافتقار إلى إله،

(١) المرجع السابق، ص ٣٣٤

(٢) محمد سعيد البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، دار الفكر، دمشق، ٢٠١٣م، ص ١٠٧

والشعور بالنّقص، وبالحاجة للعبادة. وهذا المكوّن فطري في الإنسان متجذّر فيه، ومعروف ما قاله الفيلسوف ديكارت عن النقص واستدلاله به على وجود إله واتصافه بالكمال(١)،

فهو أمر فطري، فشعور الإنسان دائما بالعجز، يلجئه إلى التفكير بالقادر الذي لا يعجزه شيء، هذا الإحساس الداخلي الذي يشعر به الإنسان صفة فطرية في كل البشر حتى الشعوب الأكثر جهلا، حيث" إن الإنسان دائما في حاجة إلى الإيمان، والتدين، والعقيدة، وإن الدين ضرورة من ضرورات حياته، وحاجة من حاجات نفسه، فلا غنى له عن الإيمان بربه، وعن عبادته بحال من الأحوال. من هنا لم تخل أمة وجدت على وجه الأرض ومنذ عهد الإنسان بالحياة، من عقيدة ودين "(٢).

ومن أوضح الأدلة على فطرية المعرفة بالله عز وجل والإيمان بوجوده، ذلك الدافع القوي الذي يُلجئ الإنسان عند المصائب والمخاطر إلى نداء الله تعالى، والاستغاثة به كائناً من كان ذلك الإنسان مؤمناً أو غير مؤمن.

ففي الشدة تبدو فطرة الناس جميعاً كما هي في أصلها الذي خلقها الله عليه، وعندما تمر المحنة وتأتي العافية والنعمة، يعودون إلى مخالفة فطرتهم من جديد، ويندر أن لا يذكر إنسان أمثلة من حياته عاش فيها هذا المعنى، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا﴾ [الإسراء: ٦٧].

فكثيراً ما تتكشف الحجب عن الفطرة، فتزول عنها الغشاوة التي رانت عليها عندما تصاب بشدة، أو تقع في مأزق لا تجد فيه من البشر عوناً، وتفقد أسباب النجاة، فكم من

---

(١) يقول ديكارت: "لو كنت خالق نفسي، لما شككت في أمر، أو رغبت في أمر، ولا افتقرت إلى أيّ من الكمالات، ذلك لأنّني سأمنح نفسي حينئذٍ كلّ كمال يخطر ببالي فأكون إلهاً"(ينظر: تأملات ميتافيزيقية، ص١٢٢).

(٢) أبو بكر جابر الجزائري، عقيدة المؤمن، ط،٣، ٢٠٠٠، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ص١٧

ملحد عرف ربّه ورجع إليه عندما أحيطت به شدة، وكم من مشرك أخلص دينه لله لضرّ نزل به، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰ إِذَا كُنتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: ٢٢].

وقال تعالى: "وإذا غشيهم موج كالظُّلل دعُوا اللهَّ مخُلِصين له الدين فلما نجاهم إلى البر فمنهم مقتصدُ وما يجحد بآياتنَا إلا كل مختار كفورٍ " (لقمان: ٣٢)

أي أن الإنسان لديه استعداد فطري لمعرفة الخالق، حيث أن" الدين أمر طبعي أو غريزي في الإنسان، أصيل في أعماق شعوره وإحساسه وفطرته. فإن الاعتقاد في شيء، أو كائن ما، أو قوة من القوى، والتدين به أمر طبعي في الإنسان، وحاجة من حاجات النفس تهيمن على المرء طول حياته، ومن ثم لا يكون بد من إروائها وإشباعها كسائر حاجات النفس الطبعية الأخرى"(١).

وذلك ما وصفه الله تعالى في القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا﴾ [٣]. ويقول الفخر الرازي مؤكدا هذا المعنى: (أن الإنسان إذا وقع في محنة شديدة وبلية قوية لا يبقى في ظنه رجاء المعاونة من أحد، فكأنه بأصل خلقته ومقتضى جبلته يتضرع إلى من يخلصه منها ويخرجه عن علائقها وحبائلها، وما ذاك إلا شهادة الفطرة بالافتقار إلى الصانع المدبر(٢). وننبه أيضا أن القول بوجود فطرة التدين والإيمان بالله لدى الانسان ليس كافيا وحده لتحقيق التدين والإيمان بالله المطلوب من كل فرد مكلف، بل لا بد من تعلّم شرائع الدين وتطبيقها، والاعتناء بهذه الفطرة وتنميتها

(١) محمد يوسف موسى، ١٩٦١م، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، ط٢، دار الفكر العربي، ص٢٧

(٢) أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (المتوفى: ٦٠٦هـ)، مفاتيح الغيب: التفسير الكبير، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ، ٧١/١٩

بالتربية والتوجيه، ضمن القيم والأخلاق التي سار عليها الأنبياء وهدوا الناس إليها. حتى لا تضل الطريق وتنحرف عن منهج الوحدانية، وضرورة تعهدها منذ الصغر حتى لا تحيد على الخط الصحيح الذي نشأت عليه، وهذا يؤكد لنا ضرورة النبوة وإرسال الله للأنبياء، كي يهدوا البشر إلى عبادة الله الحق المستحق للعبادة.

فإذا كان الإنسان يُحسّ فطريا بنزوع نحو التدين، وبالنقص الذي يدفعه إلى العبادة، فإنه سيعبد أيّ شيء، والتاريخ والواقع يشهد بذلك، فالإنسان قد عبد الأوثان والحجارة والحيوانات والبشر.. ولذلك بالإضافة إلى التّوجيه الفطريّ للإنسان الذي يعرف منه صفات الإله الحقّ، إلا أنّ المحيط الاجتماعي الذي يعيش فيه والبيئة التي تحتضنه قد تؤثّر على هذه الفطرة، فينقاد بنزعة التديّن التي فيه إلى عبادة ما لا يصحُّ عبادته، ولذلك يحتاج الإنسان إلى هداية بيانيّة إرشاديّة أخرى عبر النبوّة؛ لتبيّن له الإله الحقّ وكذلك كيف يتعبّد له.

وهناك جانب مهمّ يبيّن لنا أهمّيّة النبوّة أيضا وهو النّقص المعرفي، فإنّ الإنسان رغم تصوُّره الفطريّ عن الإله، فإنّه يحتاج إلى مزيد من المعرفة حول الله وصفاته، ليتعبّد له.

ونشير إلى أنه يصحب هذه النزعة الفطرية للدين أسئلة وجودية كبرى، تلك الأسئلة الكبرى التي تولد معنا وتعيش داخلنا: من نحن؟ كيف وُجدنا في هذا الكون؟ لماذا نحن فيه؟ ما الغاية من خلقنا وخلق هذا الكون العظيم؟ إلى أين سنذهب بعد الموت؟ و هذه الأسئلة تحيّر الإنسان، وهو في أشدّ الحاجة إلى أجوبة لها، والعلم التجريبي لا يمكنه بأيّ حال الخوض في هذه الأسئلة وليست من اختصاصه.

أسئلة كفيلة بأن تنغص الحياة وتقض المضاجع وتؤرق الأجفان إذا لم تحظ بالجواب الشافي. أسئلة حيرت الكثيرين قديما وحديثا، أسئلة يشترك فيها جميع البشر وتلح على من يجهل جوابها إلحاحا شديدا؛ مما يدل على فطريتها ووجود جواب عليها، ويدل على أننا لم نُخلق عبثا. إن هذه الأسئلة تدفع الإنسان دفعا للبحث عن الخالق والدين الحق الذي سيُذهب عنه هذا التحيّر بالجواب العقلي الفطري الصحيح الشافي.

إن النظرة الماديّة الإلحاديّة للوجود والحياة تقتضي أنّ الحياة لا هدف ولا غاية منها، بل إنّ معنى الغاية متجاوز لحدود المادّة، لكنّ المكوّن الفطريّ الملحّ على الإنسان الذي يهجم عليه كلّ مرّة بالأسئلة الوجودية، خاصّة سؤال الغاية يقتضي عكس هذه الماديّة المصمتة التي تتحرّك بجبريّة وبلا معنى.

فهذه النزعة الفطريّة في الإنسان، دالّة على وجود الله الذي أودعها في النفس، ودالّة على أنّ لهذا الكون غاية وهدفا وأنّ الوجود الإنساني هو لحكمة عظيمة وأنّ الموجودات والأحداث لها مقصود وليست عبثا. وهذا يستدعي ضرورة النبوّة والرسالة ليعرف بها الإنسان الجواب الصّحيح الذي لا شكّ فيه، على الأسئلة الوجودية، فلا يمكن للإله الذي جعل في صميم النفس البشرية هذه الحاجة الملحّة للجواب، أن يترك الإجابات للبشر أنفسهم وللفلسفة البشرية القاصرة عن تناول هذه الأسئلة بمعزل عن النسبية والافتراض.

أما عن النزعة الأخلاقية في الإنسان، فالفطرة الإنسانية فيها نزعة أخلاقية متجذرة، يدرك الإنسان من خلالها أن الأخلاق قيمة مطلقة لا نسبية، ويدرك من خلالها كذلك حسن الأخلاق من رديئها، من ثم نتساءل من ذا الذي أودع هذه النزعة؟ وما الذي يفسر شعور الإنسان الضروري بأن العدل قيمة حسنة في مقابل الظلم؟ كذلك فإن الانسان لا يمكن له أن يصل إلى القيم المطلقة لقصور علمه وعدم تجرده كليا من الهوى، فالقيم المطلقة متعالية عن وجود الإنسان أصلا، فلا وجود للقيم المطلقة بدون وجود الله تعالى. نضيف إلى ذلك أن الإيمان بالله يمكن الإنسان من استيعاب القيم المتجاوزة وجوده، واستيعاب وجود رؤية معارية مطلقة تحاكم الأخلاق والممارسات إليها، وإلا كانت محاكمة الأخلاق عنده نسبية.

ومن الأهمية بمكان أن نذكر هنا بأن الإنسان فطريا وبعيدا عن الدين، لا يمكن أن تكون له منظومة أخلاقية متكاملة، كما أنه لا يمكن أن يستمدّ مشروعية هذه الأخلاق وإلزاميّتها وموضوعيّتها إلا من الدين، لكن ما يتوصّل إليه الإنسان فطريا هو إدراك

الحسن والقبيح والتّمييز بين الأخلاق، وكذلك إدراك أنّ لهذه الأخلاق بُعدا موضوعيّا يتجاوز الذوق الشخصي، والبعد الذاتي والمصلحة وما تقتضيه البراغماتية النفعيّة.

ويذهب كانط إلي أن الإنسان لا يمكن أن يأمل في بلوغ الخير الأسمى ونيل السعادة المطابقة لتلك الأخلاقية إلا عن طريق افتراض وجود الله باعتباره الكائن الأسمى الذي يمكن أن يتم خلقيتنا. وهذا يعني، أن القانون الأخلاقي الذي يأمرنا بأن نجعل الخير الأسمى موضوع سلوكنا، لا نستطيع أن نأمله إلا بتوافق إرادتنا مع إرادة الله؛ أي تمثل "الواجبات على أنها أوامر إلهية. (١)

إن علامة الوازع الأخلاقي، أو علامة الواجب، أو علامة الضمير، لا توجد في النفس الإنسانية بغير وجود إله، إذ كيف يدين الإنسان نفسه بالحق، إن لم يكن في الكون قسطاس للحق يغرس في نفسه هذا الوجوب؟ وكيف تقرر في طبع الإنسان، أن الواجب الكريه لديه أولى به من طاعة الهوى المحبب إليه، وإن لم يطلع على دخيلة سره أحد؟(٢).

وفي معرض حديثه عن مستويات الدلالة الفطرية على وجود الله تعالى، يقول المهندس عبد الله العجيري: "من المعاني الفطرية أيضا، التي يجدها الإنسان من نفسه: نزعة أخلاقية متجذرة، يدرك من خلالها ليس فقط الأخلاق حسنها من رديئها، بل ويجد من نفسه إدراكا ضروريا بأن لهذه القيم الأخلاقية معاني موضوعية، تعطي لهذه الأخلاق قيمتها الحقيقية بعيدا عن اعتبارات النسبية والإضافة، فهي حقائق موضوعية متجاوزة للوجود الإنساني، بل وللوجود المادي، فسواء وُجد الإنسان أو لم يوجد، وسواء وُجد الكون أو لم يوجد، فستظل مثل هذه القيم الأخلاقية محافظة على قيمتها الموضوعية (٣).

---

(١) إيمانويل كانط، نقد ملكة الحكم، ترجمة سعيد الغانمي، منشورات الجمل بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، ص ٣٢٢

(٢) العقاد، الله، دار الهلال بمصر، (د.ط)، ص ٢٠٠

(٣) عبد الله العجيري، شموع النهار، مرجع سابق، ص ٥٧

فإذا كانت هذه النّزعة الأخلاقية نستنتج منها أن هناك أخلاقا موضوعيّة، فالمصدر الوحيد الموضوعيّ للأخلاق هو الله وحده، ما دام أنّ الأخلاق في عالم الإنسان تحكمها النسبية والمصلحة والأهواء والذاتيّة.

فنكون بذلك قد توصّلنا إلى أنّ القيم الأخلاقية لها موضوعيّتها التي لا تتأتّى إلا في ظلّ الوجود الإلهي، وأنّ حاكميّة هذه الأخلاق في الدّنيا لا تكون إلا برسالة إلهيّة.

وتجدر بنا الإشارة إلى أن الإسلام يحترم الفطرة الخالصة، ويرى تعاليمه صدى لها. ويحذر الأهواء الجامحة، ويقيم السدود في وجهها، والعبادات التي أمر بها، هي تدعيم للفطرة، وترويض للهوى، ولن تبلغ هذه العبادات تمامها وتؤدي رسالتها إلا إذا كانت كلها روافد لتكوين الخلق العلي، والمسلك المستقيم"(١).

أما عن نزعة الجمال، فمعناها أن الإنسان يجد من نفسه بشكل فطري متجذر فيه إحساس بالجمال، تتحرك نفسه له وتتوقى إليه، يشعر من خلاله بميل نحو ما هو جميل، ونفور مما قبيح، فهو حركة فطرية في الروح، وإحساس بالفرح والطمأنينة لكل ما هو جميل، ولذة عاطفية خالصة موجودة في الإنسان. ومن ثم فإن ذلك يجعلنا نتساءل من الذي غرس فيه تلك الأحاسيس، وهذا يدل بيقين على وجود خالق فاطر، فطر الخلق على هذا وصبغهم به.

وهذا ما قرّره القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾(طه ٥٠)، فبتلك الكلمات الموجزة الجامعة، وصف نبي الله موسى عليه السّلام ربّه تبارك وتعالى، فهو الذي خلق جميع المخلوقات، وأعطى كل مخلوقٍ خلقه الجسمي اللائق به، الدال على حسن صنعة من خلقه؛ ثم هدى كل مخلوقٍ إلى ما خلقه له من جلب منافع ودفع مضار كما يناسب بنيته وحاجته وبيئته وما سُخِّر له. ومثل ذلك، قوله تبارك وتعالى ﴿ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴾(السجدة ٧)، فالذي خلق المخلوقات

(١) محمد الغزالي، جدد حياتك، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، الطبعة التاسعة، ٢٠٠٥م، ص٦

وأعطاها خلقها الحسن، ومن ثم هداها لمصالحها وعلَّمها طرق نجاتها وانتفاعها هو الرب على الحقيقة سبحانه وتعالى.

دلالة الهداية العامة:

"اتفق أهل العقل والفطرة السليمة من الجن والإنس على وجود الله تعالى بل وجوب وجوده سبحانه وكما دل على هذه الحقيقة الكبرى الفطرة السليمة المودعة في النفوس والعقول الخالصة من الهوى والمودعة في الرؤوس فقد دل كذلك البراهين والحجج القائمة في الإنسان من جسم ونفس وروح وعقل وعاطفة وفي الحيوان والنبات وفي الأرض والرمل والتراب والحجر والسهل والجبل وفي السماء من رياح وأمطار وليل ونهار في جميعها آيات تدل على الخالق الواحد الأحد سبحانه جميع المخلوقات مهيأة بالفطرة لوظيفة في حياتها يحفظها ويقيها المهالك ما استقامت على الفطرة إلى ما شاء الله تعالى قال الله تعالى وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء فكل الأحياء من حشرات وزواحف وفقاريات ومن طائر يطير بجناحيه في الهواء ومن حيوان مائي وبرمائي وبري وجبلي ما من مخلوق من هذه المخلوقات إلا وهي تنتظم في أمة ذات خصائص واحدة وطريقة في الحياة واحدة خلقت مفطورة على اتجاه معين في الحياة ونظمت خلايا تكوينها على شكل لا يمكن أن يخرج بسببها حيوان من فطرته ونظامه ولا نبات عن جنسه". (١)

(١) الحموي، أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين ، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر – مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م (ص١٩).

المطلب الثاني: شواهد الفطرة في النفس البشرية والتجربة الإنسانية:

يذهب الإمام الرازي إلي إن وجود الله تعالى لا يحتمل الشك، فالفطرة شاهدة بوجود الصانع المختار، ويدلل على أن الفطرة الأولية شاهدة بذلك من عدة وجوه:

الوجه الأول: ما ذكره بعض العقلاء من أن الصبي إذا لُطم على وجهه لطمًا مفاجئًا، فإنه يبادر إلى الصراخ قائلًا: "من ضربني؟ "، وهذا يدل على أن فطرته السليمة تدرك أن هذا الفعل – أعني اللطمة – حادث بعد عدم، ولا بد له من فاعل مختار أحدثه. فإذا كانت الفطرة الأصلية تدرك ضرورة وجود فاعل لهذا الحدث البسيط، فلأن تدرك افتقار حوادث العالم كلها إلى صانع مدبّر يكون أولى وأجدر.

الوجه الثاني: تدرك الفطرة أن أي دار منقوشة ومحكمة البناء لا بد لها من صانع حكيم، فكيف بهذا الكون الفسيح المملوء بآثار الحكمة والدقة؟! فإذا شهدت الفطرة بضرورة وجود بانٍ لدار صغيرة، فشهادتها بوجود صانع مختار لهذا العالم أعظم وأوضح.

الوجه الثالث: الفطرة تشهد بوجود الصانع المدبّر؛ إذ الإنسان إذا وقع في بلاء شديد، وانقطعت به الأسباب، لجأ بفطرته إلى قوة غيبية يرجو منها النجاة، مما يدل على شعور داخلي بالحاجة إلى من يدبّر أمره ويملك الخلاص.

الوجه الرابع: الموجود إما أن يكون غنيًا عن المؤثر، وهو الواجب لذاته، أو محتاجًا، وهو الممكن، الذي لا بد له من صانع يوجده. فوجود أي مخلوق يدل على افتقاره إلى خالق واجب الوجود.

الوجه الخامس: الاعتراف بوجود الإله المختار، والتصديق بالتكليف والمعاد، هو الأَولى من جهة الاحتياط العقلي؛ إذ إن إنكارها إن كانت حقًّا يفضي إلى أعظم الضرر، بخلاف الإقرار بها، فلا ضرر فيه إن لم تكن كذلك. ومن هنا، فالعقل السليم يرجّح الإقرار بهذه الأصول دفعًا للضرر المحتمل. [1]

---

(١) الرازي، «تفسير الرازي = مفاتيح الغيب أو التفسير الكبير»الناشر: دار إحياء التراث العربي – بيروت
الطبعة: الثالثة – ١٤٢٠ هـ (١٩/ ٧١) .

المطلب الثالث: عالمية دليل الفطرة عند المسلمين وفلاسفة الغرب:

تأصيل كلام العلماء في دلالة الفطرة:

وقد أقر دليل الفطرة الكثير من العلماء والمفكرين، وقالوا إن الفطرة من أهم مصادر معرفة الإنسان بربه والإيمان به. يقول الإمام أبو حامد الغزالي في معرض حديثه عن إثبات وجود الله تعالى: "بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ومصرفة بمقتضى تدبيره. ولذلك قال الله تعالى: ﴿ أَفِي اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [إبراهيم ١٠]، ولهذا بعث الأنبياء – صلوات الله عليهم – لدعوة الخلق إلى التوحيد ليقولوا "لا إله إلا الله"، وما أمروا أن يقولوا: لنا إله وللعالم إله؛ فإن ذلك كان مجبولاً في فطرة عقولهم من مبدأ نشوهم وفي عنفوان شبابهم. ولذلك قال عز وجل: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [سورة لقمان٢٥]، وقال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سورة الروم، ٣٠] "(١).

وحول هذا المعنى، يقول الإمام نظام الدين النيسابوري في تفسيره غرائب القرآن ورغائب الفرقان: " إنه كان من عقيدتي أن العلم بوجود الواجب في الخارج من جملة البديهيات، وكان يستبعد ذلك كثير من أقراني وأصحابي لما رأوا أن الأقدمين ما زالوا يبرهنون على ذلك في الكتب الكلامية والحكمية"(٢)، ففي قرارة كل نفس بشرية إيمان فطري بالله.

---

(١) أبو حامد الغزالي، قواعد الاعتقاد، تحقيق وتعليق: مرسي محمد علي، عالم الكتب، بيروت، ط٢، ص ١٥١

(٢) النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ضبطه: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦, ج٥، ص٤١١

ويرى الإمام البوطي أن "إثبات وجود الله تعالى يبدأ من جملة من الحقائق والمبادئ الفطرية التي أجمع العلماء على ضرورتها"(١).

الفطرة عند فلاسفة الغرب:

والقول بدليل الفطرة لم يقتصر على علماء الإسلام، بل أقرَّ بهِ جماعة من الفلاسفة المعاصرين. منهم على سبيل المثال لا الحصر، الفيلسوف الأمريكي " ألفين بلانتنجا Alvin planting" الذي يصر على أن الإيمان شعور فطري، وأن الاعتقاد في وجود الإله مثل الاعتقاد في مفاهيم أساسية أخرى، كالاعتقاد بأن للآخرين عقولا كعقولنا، والاعتقاد في صحة حواسنا، والقول بأن الكل أكبر من الجزء " (٢).

وقد انقسم فلاسفة الغرب في موقفهم من الفطرة إلى اتجاهين رئيسيين: أحدهما يُقر بها ويرى أن الإنسان يولد مزوّدًا بمعارف أو مبادئ أولية مغروسة فيه بطبيعته، والآخر ينكرها ويعتبر العقل صفحة بيضاء لا تحتوي على أي معرفة سابقة للخبرة.

فمن أبرز المؤيدين لمفهوم الفطرة رينيه ديكارت، يقول الفيلسوف الفرنسي ديكارت: (لا يبقى ما يقال بعد ذلك إلا أن هذه الفكرة ولدت ووجدت معي منذ خلقت، كما ولدت الفكرة التي لدي عن نفسي، والحق أنه لا ينبغي أن نعجب من أن الله حين خلقني غرس فيّ هذه الفكرة لكي تكون علامة للصانع مطبوعة على صنعته)(٣).. بل إن الفيلسوف الاسكتلندي الشكاك ديفيد هيوم يعترف بهذه الفطرة في كتابه الحوارات: (ليس هنالك من هو أشد مني إحساسًا بالدين المنطبع في نفسي أو أشد تعلقًا بالموجود الإلهي كما ينكشف للعقل بين ابتداع الطبيعة وصناعتها اللذين من الصعب تفسيرهما)(٤)

---

(١) محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينات الكونية، دار الفكر، دمشق، ٢٠١٣، ص ٦٥

(٢) عمرو الشريف، رحلة عقل، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠١١، ص٥٩

(٣) التأملات ، ديكارت ، ترجمة د. عثمان أمين ص١٥٥

(٤) محاورات في الدين الطبيعي ، ديفيد هيوم ، ترجمة د. محمد فتحي الشنيطي ص١٤٠-١٤١

وعلى الجانب الأخر أنكر الفيلسوف جون لوك وجود الأفكار الفطرية في نظريته المعرفية، مستندًا في ذلك إلى حجتين أساسيتين: الأولى، أن ما يُعتقد أنه فطري عند بعض الناس قد يكون في الحقيقة مكتسبًا عند آخرين، مما ينفي عنه صفة العموم والشمول اللازمين لكونه فطريًا. والثانية، أن الإنسان – بحسب لوك – يُولد بعقل خالٍ تمامًا من أي معارف سابقة، أي كـ"صفحة بيضاء"، ثم تبدأ المعارف بالوصول إليه عن طريق التجربة الحسية والتفاعل مع العالم الخارجي. (١)

وهكذا تبرز مسألة الفطرة كإحدى القضايا المحورية في تاريخ الفلسفة الغربية، حيث شكّلت موضع اختلاف جوهري بين الاتجاهات العقلانية التي تثبتها، والتيارات التجريبية التي تنكرها، ولا تزال هذه المسألة تُثير جدلًا واسعًا في أوساط الفكر الفلسفي المعاصر.

وهناك أبحاث علمية كثيرة تؤكد على فطرية الإيمان بالخالق، فقد نشرت صحيفة التلغراف البريطانية في نوفمبر سنة ٢٠٠٨ بحثا أكاديميا عنوانه: الأطفال يولدون مؤمنين بالله Children are born believers in God" يؤكد فيه الدكتور جستون باريت Justin Barrett وهو باحث متقدم في مركز علوم الإنسان والعقل في جامعة أكسفورد بإنجلترا، أن الأطفال الصغار لديهم القابلية المُسبقة للإيمان بـ"كائن متفوق"، لأنهم يعتبرون أن كل ما في هذا العالم مخلوقٌ لسبب، ومن تعليقاته أيضا قوله: " أننا لو وضعنا مجموعة منهم على جزيرة لينشأوا بمفردهم فسيؤمنون بالله"(٢)

(١) سامية عثمان، نظرية المعرفة عند لوك ، صفحة ٨٠-٩٠.

(٢) جستون باريت، فطرية الإيمان، ترجمة ونشر مركز دلائل، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ، ص ١٣

هذا المظهر الذي يعد من مظاهر الفطرة لا يضعف ولا يختفي، إلا في انغماس الإنسان في الملذات والإسراف في المادة، فالتدين والاهتمام به نزعة من النزعات الثابتة والدائمة في الفطرة الإنسانية.

لهذا تجد الفطرة ليست بعيدة عن الدين بل الدين يلبي للإنسان حاجاته الفطرية لذلك تجد: " الإنسان متدين بفطرته، ومن ثم يصح أن نقول: إن التدين والاعتقاد الإيماني أمر فطري جبلي مركوز في أعماق الإنسان، لا يملك منه فكاكاً، ولا عنه بديلاً؛ إذ هو مفطور على أن يؤمن ويعتقد"(١).

وهذا الشعور بالنقص والحاجة هو السبب في انتشار التدين تاريخيا في الحضارات المختلفة، سواء تعلق الأمر بالإسلام (التوحيد)، أو بالديانات المخترعة الباطلة، ويتجلى ذلك في كون ظاهرة الإلحاد واللادينية عبر التاريخ البشري تظل ظاهرة استثنائية نادرة. ويقول أرنست رينان: إن من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة، ولكن يستحيل أن ينمحي التدين، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة للحياة الأرضية" (٢).

لقد لاحظ العلماء أن جميع الأمم التي درس علماء تاريخ الأديان تاريخها، اتخذت معبودات تتجه إليها وتقدَّسها، ولا يوجد عَلَى الإطلاق في أي عصر من العصور، ولا في أي أمة من الأمم مجتمع بلا دين ولا بلا إله معبود، حقاً كَانَ أو باطلاً فهناك اتجاه فطري إِلَى أن يكون هناك دين، و إله معبود حتى قال هنري برجسون: "لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات، لكن

(١) محمد سلامة أبو خليفة، مقدمة في أصول العقيدة، دار الهاني، القاهرة، ٢٠٠٧م، ص ٨٣
(٢) المرجع السابق، ص ١٠٩

لم توجد جماعة بغير ديانة"[1]، فالشعور الفطري بوجود خالق مدبر لهذا الكون هو شعور مشترك بين جميع الناس، مغروس في النفوس، يقوم في نفس الطفل الصغير، والإنسان البدائي والإنسان المتحضر، والجاهل والعالم والباحث والفيلسوف، كل هؤلاء يشعرون بشعور مشترك لا يستطيعون دفعه عن أنفسهم.

ولا يصح لنا أن نستنتج من توجه البشر إلى الله في الشدائد، بأنّ الإيمان وليد الخوف والرهبة من الطبيعة الغاضبة كما يدعي الملاحدة، بل الخوف مجرد وسيلة تكشف الغطاء عن ذلك الإيمان المغروس في أعماق البشر، المودوع في الفطرة وكذلك تكون فطرة الإيمان بالله والتدين وحب الجمال واكتناز الثروة وطلب العلم، رغم أنّها أُمور مجبولة مع فطرتنا ومعجونة مع خلقتنا، فهي لا تظهر ولا تتفتّح ولا تبرز في كل الأوقات والظروف، ولا تتجلّى في عالم الذهن في كل الأزمنة والأحوال ما لم تتهيّأ الظروف المناسبة لها في وجودنا.

(1) Bergson Henri, Les deux sources de la morale et de la religion, Les Presses universitaires de France, Paris, ١٩٤٨, p٥٥

المطلب الرابع: الرد على المنكرين لدليل الفطرة:

أما المعترضون على دليل الفطرة، فحجتهم أنه إذا كان وجود الله مستقرا في الفطرة؛ فلم يؤثر عن بعض الناس إنكارهم لوجوده، وفي هذا الصدد، نقول إن الفطرة وإن كانت تدعو المرء إلى الإيمان بوجود الله، لكن الإنسان من الممكن أن يتعرض لأعاصير الشبهات؛ حتى اقتلعت الفطرة السليمة من قلبه، فإنه يحتاج في مثل هذه الحالة إلى نصب الأدلة العقلية، وجمع البراهين العلمية كي تطمئن نفسه بالإيمان.

إن فساد الفطرة وتغيرها ليس أمرا محالا ولا بعيدا، فإن الإنسان قد يكون في بيئة ضالة منحرفة، فتتسرب إلى قلبه مؤثرات كثيرة تبعده عن سواء السبيل.

نضيف إلى ذلك أن القائلين بإنكار وجود الله هم قلة قليلة في عموم البشر عبر التاريخ، ثم إن كثيرا منهم ينكر وجود الله في الظاهر، مع إقراره بوجوده في الباطن، كما ذكر الله تعالى عن فرعون وقومه في تعاملهم مع آيات الله –سبحانه وتعالى–: ﴿ وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ (النمل: ١٤).

يقول الشهرستاني: " أما تعطيل العالم عن الصانع العالم القادر الحكيم فلست أراها مقالة لأحد، ولست أرى صاحب هذه المقالة ممن ينكر الصانع، بل هو معترف بالصانع لكنه يحيل سبب وجود العالم على البحث والاتفاق احترازا عن التعليل، فما عددت هذه المسألة من النظريات التي يقام عليها برهان، فإن الفطر السليمة الإنسانية شهدت بضرورة فطرتها وبديهة فكرتها على صانع حكيم عالم قدير أَ فِي اللَّهِ شَكٌّ فاطِرِ السَّماواتِ وَ الْأَرْضِ [إبراهيم: ١٠]، وَ لَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَ الْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ [الزخرف: ٩]، وإن هم غفلوا عن هذه الفطرة في حال السراء فلا شك أنهم يلوذون إليه في حال الضراء دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ [يونس: ٢٢]، وَ إِذا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي

الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ [الإسراء: ٦٧]، ولهذا لم يرد التكليف بمعرفة وجود الصانع، وإنما ورد بمعرفة التوحيد ونفي الشريك" (١)

أما سعي العقلاء إلى الاستدلال على وجود الله تعالى رغم إقرارهم بوجوده، فذلك سعي منهم لإقناع القلة القليلة من الناس التي تنكر وجوده، كما إن إضافة أدلة أخرى بجانب دليل الفطرة، إنما كان ذلك حتى تزداد النفس طمأنينة والقلب يقينا.

إن أكثر الأمثلة انطباقًا على حال الملاحدة، قول القائل:

كالعيس في البيداء يقتلها الظما والماء فوق ظهورها محمولُ!

فالفطرة ما زالت داخلهم لم يقدورا على طمسها، ويبحثون عن شيء يسكتونها به؛ فتارة يلجأون إلى السكوت التام واللا أدرية فلا يطيقون فيهربون منها إلى دعوى الصدفة، ثم يخجلون فيفرون من كل هذه الدلائل الفطرية والعقلية إلى افتراضات "داروين"؛ زاعمين أن هذا من باب العلم التجريبي، وهو لا يستند إلى حس أو عقل أو تجربة.

فلا وجود من غير سبب، ولا مكان للمصادفة بين العقلاء، ولكنه الغرور والتفاخر باسم العلم هو ما دفع بعض المفكرين والفلاسفة إلى التمرد على وجود الله بعد قرون طويلة من البحث عنه، فكما أن البحث عن الله أمر فطري فهناك أمور تأتي بخلاف الفطرة، ومن هنا جاء الإلحاد والإنكار. (٢)

(١) الشهرستاني، نهاية الإقدام في علم الكلام، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى /١٤٢٥ هنهاية الإقدام في علم الكلام (ص: ٧٤).

(٢) سلطان موسى الموسى، أقوم قيلا، الطبعة العاشرة ١٤٣٦هـ – ٢٠١٥م، ص ٢٤– ٢٥

المبحث الثاني الاستدلال بالفطرة على وحدانية الله

تبيّن لنا من خلال المبحث الأول أن الإيمان بوجود الله تعالى أمرٌ فطري، مغروسٌ في النفس الإنسانية منذ النشأة الأولى، بل إن الإقرار بوجود الخالق من أشد الأمور رسوخًا وثباتًا في الفطرة بما لا يحتاج معه ثمة دليل أو برهان. ننتقل في هذا المبحث إلى بُعدٍ آخر من أبعاد الفطرة، وهو دلالتها على وحدانية الله عز وجل.

فليس الإقرار بوجود الخالق وحده هو ما تشهد به الفطرة السليمة، بل إنّ هذه الفطرة تميل أيضًا إلى توحيده وتنزهه عن الشريك والمثيل، وترفض تعدد الآلهة أو الشرك، وهذا ما تشهد به وقائع التاريخ الإنساني، وتجليات النفس البشرية في أوقات الشدة والاضطرار، إذ تنزع الفطرة في لحظات الصفاء إلى الإله الواحد القهار، وترفض التوجه إلى سواه.

وسوف يتناول هذا المبحث مفهوم التوحيد في ضوء الفطرة الإنسانية، ثم يعرض الشواهد الواقعية والتاريخية التي تؤكد هذه الدلالة الفطرية على وحدانية الله، قبل أن يُختم ببيان عمومية هذه الفطرة ورد الشبهات المثارة حولها، ليتضح أن الفطرة السليمة، إذا لم تتعرض للتحريف أو التشويه، فإنها تقود بالضرورة إلى الإقرار بوحدانية الله جل وعلا.

المطلب الأول: مفهوم التوحيد والفطرة الدالة عليه:

التوحيد في الإسلام هو الاعتقاد بأن الله تعالى واحد، فهو الخالق الوحيد للكون والحياة والإنسان، وهو المالك والحاكم الحقيقي لهذه الأمور، وهو الوحيد الذي يجب أن يعبد؛ لأن العبادة لا توجه إلا إلى مَن يستحق العبادة وهو الله سبحانه وتعالى. وهو الإيمان بأنه لا إله إلا الله. أي لا خالق إلا الله، ولا كامل إلا الله؛ فهو القادر المالك والذي بيده كل شيء. والتوحيد يعني توجيه الطاعة إلى الله سبحانه وحده.

القرآن الكريم يؤكد أن التوجه إلى الله وحده، وعبادته لا شريك له، قضية فطرية مغروسة في أعماق النفس الإنسانية، وإذا كان توحيد الله أمرًا فطريًا، فمعرفته من باب أولى[1] قال الله تعالي ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾ [الروم: ٣٠]. » لقد فطر الله سبحانه وتعالى عباده على أنَّه ربُّهم، وأنَّه لا إله إلا هو وحده لا شريك له، فقال تعالى: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُوْلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِيْنَ (١٧٢) أَوْ تَقُوْلُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِنْ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُوْنَ (١٧٣) الأعراف.

ويمكننا تقريب فطرية التوحيد بما قرّبنا به أصل الإيمان بالله، فإنّ الإنسان لو خلّي ونفسه، فإنه سوف يتجه للإيمان بإله واحد أو بقدرةٍ غيبية واحدة، إليها يرجع الأمر كله، ولا يستغني عنها أحد من الناس، وهذا الإحساس الفطري بوحدانية الله هو الذي يوقظ فطرة الإنسان، ويقوده في الشدائد ويدفعه إلى التخلي عن كل الآلهة المصطنعين والتوجه إلى الله الواحد القهار، وإنْ كان هذا الإحساس قد يخبو مرة أخرى ويعود الإنسان إلى التعلق بالآلهة والشركاء الموهومين بعد ارتفاع الشدائد والخلاص من المكاره، قال سبحانه:

---

(١) عمر سليمان الأشقر، نحو ثقافة إسلامية أصيلة، الناشر: دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان – الأردن الطبعة: الرابعة، ١٤١٤ هـ – ١٩٩٤ م (ص١٠١).

﴿فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجّاهم إلى البر إذا هم يشركون﴾[العنكبوت: ٦٥، وراجع الروم٣٣، والنحل٥٣-٥٤].

ومن أوجه دلالة الفطرة على وحدانية الله، العهد والميثاق الذي أخذه اله على بني آدم، وهم في ظهر أبيهم آدم عليه السلام وهو أنه لا إله إلا الله، وإقرارهم بذلك وشهادة أنفسهم به. قال تعالى: " وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَا ۛ أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَافِلِينَ" (الأعراف ١٧٢)، كذلك فإن سلامة قلب العبد وروحه لا يتم إلا بالإقرار بوحدانية الله تعالى وإفراده بالعبادة، فلا تسكن النفس وتطمئن إلا بالإيمان به والرسوخ إليه.

فالتوحيد هو الفطرة، والإشراك تبديل للفطرة، قال ابن عاشور: " الناس على الدين الحنيف، إن الله خلق الناس قابلين لأحكام هذا الدين- ودين الله واحد في كل العصور- وجعل تعاليمه مناسبة لخلقتهم غير مجافية لها، غير نائين عنه ولا منكرين له، مثل إثبات الوحدانية لله، لأن التوحيد هو الذي يساوق العقل والنظر الصحيح، حتى لو ترك الإنسان وتفكيره، ولم يلقن اعتقادا ضارا لاهتدى إلى التوحيد بفطرته، قال ابن عطية: والذي يعتمد في تفسير هذه اللفظة- أي الفطرة- أنها الخلقة والهيئة لأن يميز بها مصنوعات الله، ويستدل بها على ربه ويعرف شرائعه"(١).

إن الدعوة إلى الإيمان بالله تبارك وتعالى، وتقرير توحيده، وتنزيهه عن الند والصاحبة والولد، وإفراده بالعبادة، والتذلل إليه، والانقياد لأمره وحكمه، هي القضية الأساسية التي من أجلها بعث الله جميع أنبيائه ورسله، وقد جاء ذلك واضحًا جليًا فيما قصه الله تعالى علينا في القرآن الكريم من دعوة الرسل إلى أممهم وأقوامهم(٢).

---

(١) محمد الطاهر ابن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، ج ٢١، ص ٩٠، مرجع سابق

(٢) حمود الرحيلي، منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م، ١/ ٩٦

المطلب الثاني: شواهد واقعية وتاريخية على فطرية التوحيد:

تُعد الفطرة واحدة من الطرق التي توصلنا إلى الإقرار بوحدانية الله تعالى، كيف لا وقد ذكر لنا القرآن ذلك، ففي معرض حديثه لإثبات الوحدانية في سورة النمل ذكر لنا رب العزة – جل وعلا– سؤالاً خاطب فيه وجدان الإنسان وفطرته؛ حتى يستدل بفطرته على وحدانية الله تعالى، فقال جل وعلا: " أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ" (النمل٦٢) وهذه الآية من أعظم آيات الرجاء، وتعد مظهرا من مظاهر اللجوء لله وحده، فيُنبه الله تعالى في الآية إلى أنّهُ هو المدعو عندَ وجودِ الشدائد، وهو من يُرجى عند النوازل، أي أنَّهُ هو الملجأ للمُضطرين، وكاشفُ الضُر عمن وقعَ به الأذى والضرر.

كما جاء في الحديث عَنْ رَجُلٍ مِنْ بَلْهُجَيْمٍ، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِلَامَ تَدْعُو؟ قَالَ: " أَدْعُو إِلَى اللهِ وَحْدَهُ، الَّذِي إِنْ مَسَّكَ ضُرٌّ فَدَعَوْتَهُ، كَشَفَ عَنْكَ، وَالَّذِي إِنْ ضَلَلْتَ بِأَرْضٍ قَفْرٍ دَعَوْتَهُ، رَدَّ عَلَيْكَ، وَالَّذِي إِنْ أَصَابَتْكَ سَنَةٌ فَدَعَوْتَهُ، أَنْبَتَ عَلَيْكَ "، قَالَ: قُلْتُ: فَأَوْصِنِي، قَالَ: " لَا تَسُبَّنَّ أَحَدًا، وَلَا تَزْهَدَنَّ فِي الْمَعْرُوفِ، وَلَوْ أَنْ تَلْقَى أَخَاكَ وَأَنْتَ مُنْبَسِطٌ إِلَيْهِ وَجْهُكَ، وَلَوْ أَنْ تُفْرِغَ مِنْ دَلْوِكَ فِي إِنَاءِ الْمُسْتَسْقِي، وَائْتَزِرْ إِلَى نِصْفِ السَّاقِ، فَإِنْ أَبَيْتَ فَإِلَى الْكَعْبَيْنِ، وَإِيَّاكَ وَإِسْبَالَ الْإِزَارِ، فَإِنَّ إِسْبَالَ الْإِزَارِ مِنَ الْمَخِيلَةِ، وَإِنَّ اللهَ لَا يُحِبُّ الْمَخِيلَةَ "[1]. فالإيمان بالخالق، واللجوء إليه، وأنَّه لا إله إلا هو أمر فطري، يؤيده ما يظهر بوضوح إذا أصيب الناس بخوفٍ شديدٍ كالخوف من الغرق في البحر، فإنهم في هذه الحالة لا يتضرّعون إلَّا إلى الله سبحانه وتعالى وحده؛ لكي ينجيهم من الغرق، ويخرجهم إلى البرّ سالمين، قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ

(١) أخرجه أحمد بن حنبل في "المسند" (٣٤/ ٢٣٩)(٢٠٦٣٦) وأخرجه النسائي في "الكبرى" (٩٦٩٥) من طريق عبد الوهَّاب الثقفي.

أُحِيْطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِيْنَ لَهُ الدِّيْنَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُوْنَنَّ مِنَ الشَّاكِرِيْنَ﴾ [يونس: ٢٢].

والإنسان عبر الأزمنة المتعددة كان يقر بالوحدانية في فطرته، وإن كان قد أظهر الإشراك؛ فقديماً كانوا يقرون بإله أعلى أو أعظم مع شركهم بالله، ولكن عند الشدة يتركون ما أشركوا بالله ويعترفوا بالإله الحق – جل وعلا – وما حدث مع فرعون ما هو إلا أكبر دليل على ذلك، فهذا الذي كان يدعي الألوهية ماذا قال عندما أدركه الغرق؟ اسمع إلى قوله تعالى:

﴿حَتَّى إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٩٠]

وحول تأكيد هذه الفكرة، يقول الدكتور محمد عبد الله دراز: " إن كثيرًا من أصحاب الدراسات الإنسانية والاجتماعية، لاحظوا وجود عقيدة التوحيد لدى بعض القبائل البدائية المنعزلة عن الحضارة، وهي قبائل متفرقة في مواطن كثيرة في الأرض كأستراليا وأمريكا، وقد انتهت هذه الدراسات إلى أن الروح الإنسانية إذا كانت قادرة على أن تعرف الله، فإنه يجب أن تكون قادرة على إدراك أنه لا يوجد إلا إله واحد. (١)

والأصل في خلق الإنسان على التوحيد والإسلام، والله خلق آدم –عليه السلام– على التوحيد، خلقه الله وأنشأه نشأة صالحة موحدًا لربه معظمًا له، فلما عصى معصية واحدة أكل من الشجرة هو وزوجته حواء أهبطا من الجنة بهذه المعصية، وقال فيه ربنا: ﴿وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى﴾[طه: ١٢١–١٢٢].

(١) محمد عبد الله دراز، الدين، دار القلم، الكويت، ١٩٨٠، ص١١٢

المطلب الثالث: عالمية التوحيد الفطري ورد الشبهات حوله:

إن الدارس لأحوال الأمم والشعوب منذ خلق الله الخلق إلى يومنا هذا، يستطيع أن يقف على وجود قاسم مشترك بينها؛ وهو الإيمان بقوة يتوجهون إليها لا تدركها حواسهم مدفوعين بذلك بدافع لا شعورى وهو الفطرة.

فقضية الإيمان بخالق للإنسان والكون والحياة قضية راسخة فى الفطرة الإنسانية، عميقة الجذور عمق الشعور بالذات البشرية؛ يلجأ إليها الإنسان عند افتقاره إلى الملجأ والملاذ، وكما يشعر المرء بعمق غرائزه الأبوية وحب البقاء وحب التملك فى كيانه، ويشعر بالقلق والاضطراب فى حياته إن لم يشبعها بالطريقة السليمة، فكذلك شعوره بالاضطراب والقلق إن لم تشبع غريزة التدين فيه بإشباع الأشواق الروحية، وتوجيهها الوجهة السليمة للمعبود الحق وهو الله تعالى(١).

يقول الشهر ستانى: "ما عددت هذه المسألة – إثبات وجود الله – من النظريات التى يقام عليها البرهان فإن الفطر السليمة الإنسانية شهدت بضرورة فطرتها، وبداهة فكرتها على صانع حكيم عالم قدير"(٢).

فمسألة الإيمان بما هو فوق المحسوس عقيدة فطرية لم تخل منها أمة من الأمم، ولم يهملها شعب من الشعوب حتى الماديين أنفسهم لم يذهب منهم هذا الإحساس(٣).

فهذا الإيمان الفطري لدليل صادق على الإيمان بما هو خارج عن دائرة الحس فالله تعالى لا يقع تحت الحس ومع هذا ترى النفوس تهفو إليه وتقربه يستوى في ذلك جميع الشعوب على اختلاف رقيها وانحدارها ولا يقلل من قيمة هذا الدليل هؤلاء الماديون لكونهم

---

(١) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي. د/ مصطفى مسلم صـــ ١٥ دار القلم . دمشق ١٤١٠هـ – ١٩٨٩م.

(٢) نهاية الإقدام في علم الكلام . للشهر ستاني صـ ١٢٤.

(٣) انظر: العقيدة وأثرها في بناء الجيل عبد الله عزام صـ ٥٣ مكتبة الأقصى عمان ط١ ١٩٥٣م.

ألغوا عقولهم، وأسكتوا نداء الفطرة في نفوسهم واتبعوا الهوى. إن غريزة التدين هذه ميزت الإنسان عن الحيوان وجعلت عقيدة عالم الغيب والخفاء مستقرة في نفوسنا ودفعت الإنسان إلى الإيمان بوجود شيء لا يرى بالعين، ولا يلمس باليد(١). إن دليل الفطرة من الأدلة التي نَبَّه عليها القرآن الكريم، فالفطرة السليمة مغروس فيها الإقرار بوجود الإله الخالق، والنفوس الإنسانية تشهد بضرورة وجود الخالق عز وجل. والذي عليه جمهور علماء الأمة أن الإقرار بالخالق فطري ضرورة مغروس في نفس الإنسان. وإنكار الخالق وجحده في العقول والنفوس بمنزلة إنكار العلم وجحده ولا فرق بينهما، ولا يوجد عاقل يشك لحظة في وجود خالق السموات والأرض. إن الفطرة الإنسانية السليمة تقود لا إلى الإيمان بوجود الله تعالى فحسب، بل إلى الإقرار بوحدانيته ونفي الشريك عنه، فالتوحيد هو الأصل المغروس في كيان الإنسان، وهو الحقيقة التي تنبع من أعماق النفس حين تصفو عن المؤثرات، وتتكشف عنها حجب الجهل والشهوة والهوى.

وقد أظهرت الشواهد القرآنية والواقعية أن الإنسان في أوقات الضيق والشدائد لا يلجأ إلا إلى الله وحده، ما يؤكد أن وحدانية الله عز وجل مغروسة في الفطرة، تظهر جلية في لحظات الصدق الوجودي والانكشاف الداخلي. وهكذا، فإن دلالة الفطرة على وحدانية الله تعالى تمثل ركنًا أصيلاً من أركان المعرفة الإيمانية، ويكفي فيها الرجوع إلى النفس والتأمل في أحوال البشر لنجد أنها شهادة خالدة في كل زمان ومكان، لا يمكن نفيها إلا بمكابرة أو غفلة عن أصل الفطرة.

(١) انظر: عقيدة المسلم. للشيخ محمد متولى الشعراوى صـ ٣٥ جمع وإعداد: عبد القادر أحمد عطا. مكتبة التراث الإسلامى، مدخل إلى الفلسفة د. أحمد رمضان صـــــ ٢٠٠. الدار الإسلامية للطباعة والنشر.

الخاتمة

يُعدّ موضوع الفطرة ودلالتها على وجود الله تعالى ووحدانيته من أعظم القضايا التي ينبغي أن تُولى عناية خاصة، لا سيما في ظل ما يشهده العصر الحديث من تصاعد موجات الإلحاد والشكوك الفكرية، ومحاولات التشويش على المسلّمات الدينية التي استقر عليها العقل السليم والفطرة النقية. ومن هذا المنطلق، جاءت هذه الدراسة لتسلّط الضوء على أحد أبرز الأدلة الفطرية التي غرست في الإنسان منذ النشأة الأولى، والتي لا تنفكّ، متى سلمت من المؤثرات، أن تدلّه على خالقه وتدعوه إلى توحيده.

وفي ضوء ما تم عرضه وتحليله، يمكن الآن الوقوف على أبرز النتائج التي توصل إليها البحث، يليها عرض لأهم التوصيات.

نتائج الدراسة

أحمد الله تعالى الذي وفقني على إتمام هذا البحث المتواضع والذي تناولت فيه دلالة الفطرة على وجود الله تعالى، ومن خلال كتابتي للبحث، توصلت إلى عدة أمور منها ما يلي:

١- كشفت الدراسة أن معاني كلمة فطرة ومشتقاتها في القرآن الكريم، لم تختلف عن معانيها في المعاجم اللغوية. فالفطرة في اللغة لها معان متعددة تدور حول: الشق، والخلقة، والابتداء والاختراع، والايجاد. وقد ورد ذكر أغلب هذه المعاني في القرآن الكريم والسنة وكلام العرب كما بينا، كما أثر معنى الفطرة في اللغة على معناها في الاصطلاح.

٢- أوضحت الدراسة أن الناس مفطورون على التوحيد والخير، وما يطرأ عليهم من انحراف وفساد يرجع لأسباب خارجية طارئة. والفطرة لا تكفي وحدها لهداية الناس، فالشريعة مكملة للفطرة ومفصلة للأحكام التي لا تستقل الفطرة بإثباتها، فمثل الفطرة

مع الشريعة كمثل العين مع النور، فإن العين إذا غاب النور عنها لم تبصر شيئاً، وكذلك الفطرة إذا غابت عنها الشريعة المنزلة.

٣- يعد دليل الفطرة من الأدلة الكبرى على وجود الله، وهو ركيزة أساسية كذلك في الاستدلال القرآني على أصول الاعتقاد، ودليل الفطرة مفاده أن الإنسان لو ترك وذاته دون أي مؤثر من مؤثرات البيئة، فإنه يشعر من داخله وبما أودعه الله من فطرة بأن لهذا الكون موجد وقادر، وهذا الشعور لا يمكن انتزاعه من نفسه. وأن الإنسان لو ترك على فطرته السليمة، دون وجود عوامل خارجية تؤثر فيه. لتوصل لحقيقة وجود الله تعالى.

٤- توجد عوامل كثيرة أدت إلى إضعاف الفطرة واختفائها وضلالها، أهم هذه العوامل هي الشبهات التي نشرها الملاحدة في مختلف العصور، من دعوة إلى التحلل من القيم الأخلاقية النبيلة، والصد عن سبيل الله، ومن الأمور التي تضعف الفطرة أيضا وتؤثر عليها، تقليد الآباء واتباعهم في الباطل، وفي التقليد إبطال لدور العقل الذي خلق للتأمل والتدبر والتفكر، أضف إلى ذلك المبالغة في تعظيم المخلوقات وتقديسها إلى حد العبادة.

٥- إن الشعور الفطري بوجود خالق مدبر لهذا الكون، شعور مشترك بين جميع الناس مغروس في النفوس، وقد لاحظ العلماء أن جميع الأمم التي درس علماء تاريخ الأديان تاريخها، اتخذت معبودات تتجه إليها وتقدَّسها، ولا يوجد عَلَى الإطلاق في أي عصر من العصور، ولا في أي أمة من الأمم، مجتمع بلا دين ولا بلا إله معبود، حقاً كَانَ أو باطلاً، فهناك اتجاه فطري إِلَى أن يكون هناك دين، و إله معبود.

٦- إن الأسئلة الكبرى التي تولد معنا وتعيش داخلنا والتي حيرت الكثيرين قديما وحديثا، ما هي إلا دليل فطري على وجود الله الذي أودعها في النفس، ودالّة على أنّ لهذا الكون غاية وهدفا، وأنّ الوجود الإنساني هو لحكمة عظيمة، وأنّ الموجودات

والأحداث لها مقصود وليست عبثا. وهذا يستدعي ضرورة النبوّة والرسالة ليعرف بها الإنسان الجواب الصّحيح الذي لا شكّ فيه.

٧- الإنسان عبر الأزمنة المتعددة كان يقر بالوحدانية في فطرته، وإن كان قد أظهر الإشراك فكثير من أصحاب الدراسات الإنسانية والاجتماعية، لاحظوا وجود عقيدة التوحيد لدى بعض القبائل البدائية المنعزلة عن الحضارة.

٨- الدعوة إلى الإيمان بالله تبارك وتعالى، وتقرير توحيده، وتنزيهه عن الند والصاحبة والولد، وإفراده بالعبادة، والتذلل إليه، والانقياد لأمره وحكمه، هي القضية الأساسية التي من أجلها بعث الله جميع أنبيائه ورسله.

٩- من أوجه دلالة الفطرة على وحدانية الله، العهد والميثاق الذي أخذه اله على بني آدم، وهم في ظهر أبيهم آدم –عليه السلام – كذلك من دلالة الفطرة على وحدانية الله، أن الإنسان لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا، والمالك الحقيقي هو الله.

١٠- فطرة الإنسان فطرة سوية سليمة، وهي في ذاتها منة من الله على المؤمنين؛ فهي تهيئة من الله للإيمان، وليست للكفر، بل هي لا تقبل إلا الأيمان بالله الواحد وترفض الكفر والشرك.

١١- إنّ معرفة الله تعالى فطريةٌ بديهيةٌ ضروريةٌ لا تحتاج إلى نظر واستدلال، إلا أن العقلَ والنظرَ مساندٌ لهذه الغريزة "لينالَ المؤمنُ بذلك زيادة اليقين وثلج الصدر، وهذا من حيث الأصل، إلا أنه قد يَعرِضُ للإنسان ما يحتاج معه إلى النظرِ والاستدلال العقلي؛ لإيقاظ هذا المعنى الفطري الكامن في النفس، فسبُل معرفة الله تعالى ليست محصورةٌ في الفطرةِ وحدها، بل الأدلةُ الدالةُ على وجوده سبحانه وتعالى كثيرة متنوعة.

هذا ما توصلت إليه من خلال كتابتي للبحث، أسأل الله تعالى أن يوفقني بما قلت وبما كتبت إنه ولي ذلك والقادر عليه. وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً كثيرا.

توصيات البحث:

١. ضرورة إدراج الأدلة العقلية على وجود الله تعالى من وجهة الدين والفلسفة والعلم، ومنها دليل الفطرة ضمن المناهج التعليمية في الدراسات الإسلامية والفلسفية لتعزيز فهم الطلاب لأحد أهم الأدلة العقلية والشرعية على وجود الله تعالى، مما يسهم في بناء عقيدة متينة وصحيحة.

٢. تشجيع البحوث العلمية المتخصصة في موضوع الفطرة ودلالتها على وجود الله من منطلقات دينية وفلسفية، لاستكمال الدراسات الحالية وتقديم رؤى جديدة تساهم في الحوار بين الدين والفلسفة.

٣. تفعيل دور المناهج التربوية والدعوية في معالجة أسباب انحراف الفطرة، من خلال برامج تدريبية تثقيفية تستهدف الشباب، تهدف إلى تعزيز القيم الإيمانية وتحصينهم ضد الأفكار الإلحادية.

٤. إجراء دراسات ميدانية مستفيضة لرصد تأثير الفطرة على السلوك العقائدي للأفراد والمجتمعات، مع تحليل العوامل التي تؤدي إلى إضعافها، سعياً إلى وضع استراتيجيات فعالة للحفاظ عليها وتنميتها، وتقديم توصيات علمية متكاملة تخدم المجتمع الأكاديمي والدعوي.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

الكتب والمراجع:

١. أحمد بن محمد بن علي الفيومي المقري، المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، المحقق: عبد العظيم الشناوي، دار المعارف، القاهرة، الطبعة الثانية، (د. ط)، ٤٧٦/٢_

٢. ابن الجوزي، تلبيس إبليس، الناشر: دار الفكر، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م -

٣. ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير، المؤلف: جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ) المحقق: عبد الرزاق المهدي، الناشر: دار الكتاب العربي – بيروت، الطبعة: الأولى - ١٤٢٢ هـ-

٤. ابن ماجة أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني، سنن ابن ماجه، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء الكتب العربية – فيصل عيسى البابي الحلبي--

٥. ابن منظور، لسان العرب، دار المعارف، القاهرة-

٦. أبو بكر الباقلاني، الإنصاف فيما يجب اعتقاده ولا يجوز الجهل به، المكتبة الأزهرية للتراث، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م-

٧. أبو بكر جابر الجزائري، عقيدة المؤمن، ط، ٣، ٢٠٠٠، دار السلام للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة-

٨. أبو جعفر بن جرير الطبري، تفسير الطبري، المجلد الثالث، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ -

٩. أبو حامد الغزالي، إحياء علوم الدين ٢٠٠٤، دار الحديث، القاهرة-

١٠. أبو عمر يوسف بن عبد البر، تجريد التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، مطبعة مكتبة المقدس، القاهرة، ١٣٥٠هـ-

١١. أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، المجلد الأول-

١٢. أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي القرطبي الظاهري (المتوفى: ٤٥٦هـ)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، المجلد الأول-

١٣. أبو نصر إسماعيل الجوهري، الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، دار الحديث، القاهرة، ١٤٣٠هـ-

١٤. أحمد بن عطية بن علي الغامدي، البيهقي وموقفه من الإلهيات، الناشر: عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، الطبعة: الثانية، ١٤٢٣ هـ/٢٠٠٢ م -

١٥. أفنان بنت حمد الغماسي، منهج القرآن في دحض شبهات الملحدين، مركز دلائل، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ.

١٦. جستون باريت، فطرية الإيمان، ترجمة ونشر مركز دلائل، الرياض، الطبعة الأولى، ١٤٣٨هـ-

١٧. حمود الرحيلي، منهج القرآن الكريم في دعوة المشركين إلى الإسلام، عمادة البحث العلمي بالجامعة الإسلامية، المدينة المنورة، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ/٢٠٠٤م-

١٨. الحموي، أبو عبد الله، محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الكناني الحموي الشافعي، بدر الدين، إيضاح الدليل في قطع حجج أهل التعطيل، الناشر: دار السلام للطباعة والنشر – مصر، الطبعة: الأولى، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م -

١٩. الخليل بن أحمد الفراهيدي، العين، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ-
٢٠. ديكارت، التأمّلات، ترجمة عثمان أمين، المركز القومي للترجمة.
٢١. الرازي، مفاتيح الغيب: التفسير الكبير، الناشر: دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثالثة ١٤٢٠هـ-
٢٢. الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، المطبعة الخيرية بمصر، الطبعة الأولى-
٢٣. سلطان موسى الموسى، أقوم قيلا، الطبعة العاشرة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م-
٢٤. الشهرستاني، نهاية الإقدام في علم الكلام، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة: الأولى /١٤٢٥هـ -
٢٥. شوقي أبو خليل، غريزة أم تقدير إلهي، دار الفكر، دمشق، ط١-
٢٦. الشوكاني، فتح القدير للشوكاني، الناشر: دار ابن كثير، دار الكلم الطيب - دمشق، بيروت، الطبعة: الأولى -
٢٧. الشيخ صالح بن فوزان، عقيدة التوحيد، مكتبة دار المنهاج، الرياض، ط١، ١٤٣٤هـ-
٢٨. طه عزمي السيد، الفلسفة مدخل حديث، دار المناهج للنشر-
٢٩. عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الوجيزة في العقيدة الإسلامية، مؤسسة الريان، بيروت، ط٢: ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م-
٣٠ عبد الرحمن بن زيد الزنيدي، مصادر المعرفة في الفكر الديني والفلسفي، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، القاهرة، ١٩٩٢م-
٣١. عبد الله القرني، المعرفة في الإسلام، دار النشر، مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ٢٠٠٨م-
٣٢. عبد الله بن صالح العجيري، شموع النهار، مكتبة مؤمن قريش، ط١ ١٤٣٧هـ، -

٣٣. عبدالحليم محمود، فلسفة ابن طفيل ورسالته حي بن يقظان، ط٢، مكتبة الأنجلو، القاهرة-
٣٤. عبدالرحمن حسن حنبكة، براهين وأدلة إيمانية، دار القلم، دمشق، ط١، ١٩٨٧-
٣٥. عثمان جمعة ضميرية، مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، مكتبة السوادي للتوزيع، الطبعة الثانية ١٤١٧هـ-١٩٩٦م-
٣٦. العقاد، الله، دار الهلال بمصر، (د. ط)-
٣٧. عقيدة المسلم. للشيخ محمد متولى الشعراوى صـ ٣٥ جمع وإعداد عبد القادر أحمد عطا- أحمد رمضان مدخل إلى الفلسفة، مكتبة التراث الإسلامى، الدار الإسلامية للطباعة والنش-
٣٨. العقيدة وأثرها في بناء الجيل عبد الله عزام صـ ٥٣ مكتبة الأقصى عمان ط١ ١٩٥٣م-
٣٩. علي الطنطاوي، تعريف عام بدين الإسلام، دار المنارة، جدة-
٤٠. عماد الدين بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق عبدالعزيز غنيم، دار الشعب، مصر-
٤١. عمر سليمان الأشقر، نحو ثقافة إسلامية أصيلة، الناشر: دار النفائس للنشر والتوزيع، عمان – الأردن، الطبعة: الرابعة، ١٤١٤ هـ - ١٩٩٤ م-
٤٢. عمرو الشريف، رحلة عقل، مكتبة الشروق الدولية، ط٤، ٢٠١١-
٤٣. الغزالي، قواعد الاعتقاد، تحقيق وتعليق: مرسي محمد علي، عالم الكتب، بيروت-
٤٤. قحطان الدوري، العقيدة الإسلامية ومذاهبها، دار العلوم، عمان، ط١، ٢٠٠٧-
٤٦. الكليات، أبو البقاء الكفوي، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤١٩هـ-
٤٥. مباحث في التفسير الموضوعى. د/ مصطفى مسلم صـ ١٥ دار القلم. دمشق ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م-

٤٦. محب الدين الزبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، المجلد الثالث-
٤٧. محمد الجهني، التمانع الدال على التوحيد في كتاب الله ونقد مسالك المتكلمين، مجلة جامعة أم القرى، عدد(٤٥)، ذو القعدة ١٤٢٩هـ-
٤٨ محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، المجلد ٢١، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م-
٤٩. محمد الغزالي، عقيدة المسلم، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م-
٥٠ محمد الغزالي، جدد حياتك، نهضة مصر للطباعة، القاهرة، الطبعة التاسعة، ٢٠٠٥م-
٥١. محمد بن إبراهيم ابن الوزير، ترجيح أساليب القرآن على أساليب القرآن، مطبعة المعاهد، القاهرة (د. ط)-
٥٢. محمد بن يعقوب الفيروزبادي، القاموس المحيط، ج٢، دار الحديث، القاهرة-
٥٣. محمد حسن ياسين، الله بين الفطرة والدليل، المكتب العالمي، بيروت، ط٣،
٥٤. محمد حسين عبد الله، مفاهيم إسلامية، الطبعة الأولى، ١٩٨٥م-
٥٥. محمد خليل مكاوي (١٤٠٥)، عقيدة التوحيد في القرآن الكريم، مكتبة دار الزمان، (الطبعة ١)-
٥٦. محمد سعيد البوطي، كبرى اليقينيات الكونية، دار الفكر، دمشق، ٢٠١٣م-
٥٧. محمد سعيد رمضان البوطي، كبرى اليقينات الكونية، دار الفكر، دمشق، ٢٠١٣-
٥٨. محمد سلامة أبو خليفة، مقدمة في أصول العقيدة، دار الهاني، القاهرة، ٢٠٠٧م-
٥٩. محمد سيد الجليند، قضية الألوهية بين الدين والفلسفة، دار قباء، القاهرة-
٦٠. محمد عبد الله دراز، الدين، دار القلم، الكويت، ١٩٨٠-

٦١. محمد متولي الشعراوي، الأدلة المادية على وجود الله، مؤسسة أخبار اليوم، (د. ط)-
٦٢. محمد يوسف موسى، ١٩٦١م، الإسلام وحاجة الإنسانية إليه، ط، ٢، دار الفكر العربي-
٦٣. محمد المكي الناصري، «التيسير في أحاديث التفسير»الناشر: دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، ١٤٠٥ هـ - ١٩٨٥ م
٦٤. محمود بن عمر الزمخشري، أساس البلاغة، دار صادر، بيروت، ط١، ١٣٩٩هـ-
٦٥. مصطفى مسلم، «مباحث في التفسير الموضوعي» الناشر: دار القلم الطبعة: الرابعة ١٤٢٦ هـ - ٢٠٠٥ م
٦٦. النيسابوري، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، ضبطه: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٩٦-
٦٧. هشام عزمي، الإلحاد للمبتدئين، دار الكاتب، ط٢، ٢٠١٥م-

فهرس الموضوعات

المحتويات

ملخص البحث: – ٦٦٠
مقدمة ٦٦٣
أهمية الموضوع:..... ٦٦٤
أسباب اختيار الموضوع:..... ٦٦٥
مشكلة البحث ٦٦٥
أسئلة البحث ٦٦٦
أهداف البحث ٦٦٦
منهج البحث:..... ٦٦٦
خطة البحث:..... ٦٦٧
تمهيد: ٦٦٨
المطلب الأول: تعريف الفطرة لغة واصطلاحًا. ٦٦٨
المطلب الثاني: العوامل التي تؤثر في الفطرة: ٦٧٨
المبحث الأول: الاستدلال بالفطرة على وجود الله ٦٨٥
المطلب الأول: مفهوم الفطرة ودورها في إثبات وجود الله:..... ٦٨٥
المطلب الثاني: شواهد الفطرة في النفس البشرية والتجربة الإنسانية: ٦٩٦
المطلب الثالث: عالمية دليل الفطرة عند المسلمين وفلاسفة الغرب: ٦٩٧

المطلب الرابع: الرد على المنكرين لدليل الفطرة: ٧٠٢
المبحث الثاني الاستدلال بالفطرة على وحدانية الله ٧٠٤
المطلب الأول: مفهوم التوحيد والفطرة الدالة عليه: ٧٠٥
المطلب الثاني: شواهد واقعية وتاريخية على فطرية التوحيد: ٧٠٧
المطلب الثالث: عالمية التوحيد الفطري ورد الشبهات حوله: ٧٠٩
الخاتمة ٧١١
توصيات البحث: ٧١٤
المصادر والمراجع ٧١٥
فهرس الموضوعات ٧٢١